سيرة سيد المرسلين

منشورات
دار الآفاق الجديدة

سيرة سيد المرسلين

وتشتمل على تاريخ حياة النبي العربي الكريم محمد بن عبد الله
منذ ولادته (٥٣ ق هـ) إلى حين انتقاله إلى الرفيق الأعلى (١١ هـ)
مع لمحة عن نسبه الشريف وشمائله ومعجزاته

تأليف

جماعة من كبار العلماء

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

ومختلف كتب الحديث ، والشمائل ، والتفسير ، وأسباب نزول القرآن ، وأسباب ورود الحديث ، والطبقات ، والتاريخ •

وفقنا الله لما فيه خير العرب والمسلمين وأعاننا على احياء معالم دينه الحنيف •

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نســـبه

عليه السلام

هو النبي العربي ، جامع شمل العرب ، ومجدد حياتهم السياسية ، (محمد بن عبدالله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية القرشية (إبن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية • وكان عبد المطلب زعيـم قريش في الجاهلية وأحـد سادات العرب ومقدميهم ، أحبـه قومه ورفعوا من شأنه ، (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية وكان عبد مناف يسمى قمر البطحاء ، وكان له أمر قريش بعد موت أبيه • (ابن قصي) من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية • وكان الى قصي في الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج واطعامه المسمى بالرفادة ، والندوة واللواء ، وكانت قريش تتيمن برأيه ، فلا تبرم أمرا الا في داره ، وقصي (بن كلاب) مـن زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك ومرة يكنى ابا يقظة ، من نسله بنو يقظة وبنو مخزوم وبنو تيم (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضا وكان كعب عظيم القدر عند العرب حتى ارخوا بموته الى عام الفيل ، وهو اول من سن الاجتماع يوم الجمعة • (ابن لؤي) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة ، ولؤي هذا كان التقدم في قريش لبنيه وبني بيته ، وتاريخهم حافل ضخم ، (ابن غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد مـن هذيل ، وكان فهر رئيس الناس بمكة ، وهو جماع قريش في قول هشام ، وكانت منازل بنيه حول مكة • قال ابن حزم : لا قريش غيرهم ، ولا يكون

قرشي الا منهم ، وهم بطون كثيرة ، (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحرث من جرهم (ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان وكنية النضر ابو يخلد ، وقيل اسمه قيس ولقب بالنضر لجماله • وفي النسابين من يرى أنه هو قريش (ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر بن إد (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان ، وخزيمة هو الذي نصب « هبل » على الكعبة فكان يقال هبل خزيمة (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة ، وكان اسم مدركة عمرا ، ولقب بمدركة فغلب عليه (ابن الياس) من زوجه ليلى (الملقبة بخندف) بنت حلوان ، المضروب بها المثل في الشرف والمنعة ، والياس هذا هو اول من اهدى البدن الى البيت الحرام ، ويذكر عن النبي (ص) انه قال : «لا تسبوا الياس فانه كان مؤمنا » (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد • وكان مضر من أحسن الناس صوتا ، وقيل انه اول من سن الحداء للابل في العرب ، (ابن نزار)من زوجه سودة بنت عك ، وكانت لنزار سيادة وثروة كبيرة ، (ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم (ابن عدنان) •

هذا هو النسب الصحيح المجمع عليه من علماء التاريخ والمحدثين ، وما فوق ذلك مختلف فيه • وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا انتسب فبلغ عدنان أمسك وقال: كذب النسابون• الا ان رجال الانساب مجمعون على انه من ولد اسماعيل ، والخلاف في اسماء آبائه وعدد من بينه وبين اسماعيل منهم • وعن عائشة رضي الله عنها : « ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان الا تخرجا » • وعن واثلة بن الاسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » •

فالنبي اذن من صميم قريش التي لها القدم الاولى في الشرف وعلو

المكانة بين العرب ، ولا تجد في سلسلة آبائه الا كراما ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة ، وكذلك امهات آبائه من أرفع قبائلهن شأنا . ولا شك ان شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة ، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعيا بحسب الاصول العربية ، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله .

ذكر زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة وحملها

كان عبدالله بن عبد المطلب احسن رجل رؤي في قريش قط ، ومن أحب ولد أبيه اليه ، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثماني عشرة سنة وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبا وموضعا. ولما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار : فانه كان ذهب بتجارة الى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع وقيل : مات بالابواء ، بين مكة والمدينة . ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها فاستبشر عبد المطلب بهذا المولود الكريم الذي بث فيما بعد روح الآداب وتمم مكارم الاخلاق . وكان ذلك صبيحة يوم الاثنين ٩ ربيع الاول الموافق لليوم العشرين من نيسان (ابريل) سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الاولى من حادثة الفيل . وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم ، وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسرورا وسماه محمدا وقيل : انما سماه محمدا لرؤيا رآها ، قيل انه رأى في منامه ، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الارض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا

أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها ، فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والارض ، فلذلك سماه محمدا • ولم يكن هذا الاسم شائعا قبل عند العرب •

الرضــــاع

وكان من عادة العرب ان يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد وكانوا يقولون : ان المربى في المدن يكون كليــل الذهن فاتر العزيمة فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفــالا يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية واسم زوجها ابو كبشة ، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن ابي كبشة يكلم من السماء ! ودرت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربعة سنوات •

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره واخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفا فردته الى أمه وحدثتها قائلة : بينما هو وأخوه في بهم لنا خلف بيوتنا اذ اتانا أخوه يشتد فقال لي ولابيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ، فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعا لونه ، فالتزمته والتزمه ابوه فقلنا له : ما لك يا بني ؟ فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئا فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو •

ذكر الخبر عن وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم ان أمه أخذته منها وقدمت على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره اياهم ، وبينما هي عائدة الى مكة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالابواء . فحضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنا عظيما في المستقبل وكان يكرمه غاية الاكرام ، قالت أم أيمن : كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أدر الا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول: يا بركة . قلت لبيك . قال أتدري اين وجدت ابني ؟ قلت لا أدري . قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، لا تغفلي عن ابني ، فان أهل الكتاب يزعمون انه نبي هذه الامة وأنا لا آمن عليه منهم . ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكفله عمه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيورا . وكان أبو طالب مقلا من المال فبارك الله له في قليله ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الاطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا أقبل وقت الاكل جاء الاولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له .

ذكر سفره مع عمه إلى الشام

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، أراد ابو طالب السفر بتجارة الى الشام ، فلما تهيأ للرحيل تعلق به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعظم فراقه فرق له أبو طالب وأخذه معه . فلما نزل الركب في قرية بصرى من أرض الشام لقيهم بحيرا الراهب فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعثة

نبي من العرب في هذا الزمن فقالوا انه لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيرا ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

حرب الفجار

كان البراض بن قيس بن رافع الكناني ، سكيرا فاسقا فاتكا ، يضرب بفتكه المثل ، تبرأ منه قومه ، ففارقهم وقدم مكة ، فنزل على حرب بن أمية، فحالفه وأحسن جواره، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه، فقال لحرب : انه لم يبق أحد ممن يعرفني الا خلعني سواك ، وانك ان خلعتني لم ينظر الي احد بعدك ، فدعني على حلفك وانا خارج عنك ، وتركه وخرج الى العراق .

وكان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة تجارة يرسلها كل عام الى سوق عكاظ (١) يجيزها له سيد مضر . فجلس يوما وعنده البراض وعروة ابن عتبة بن جعفر الرحال فقال : من يجيز تجارتي هذه الى عكاظ ؟ فقال البراض : أنا أجيزها على بني كنانة ، فقال النعمان : انما اريد رجلا يجيزها على أهل نجد . فقال عروة وهو يومئذ رجل هوازن : أكلب خليع يجيزها لك ؟ أبيت اللعن (٢) ، أنا اجيزها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد (٣) وتهامة (٤) .

---

(١) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب

(٢) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة .

(٣) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها .

(٤) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقى منها يسمى البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق .

فقال له البراض : أعلى كنانة تجيزها يا عروة ؟ فقال عروة : وعلى الناس جميعا . فأسرها في نفسه ، وتربص له حتى اذا خرج بالتجارة ونزل بأرض يقال لها : أوارة ، دخل عليه البراض وقتله غدرا ، ثم أرسل رسولا يخبر قومه كنانة بالخبر ، ويحذرهم قيسا قوم عروة . وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشا وكنانة بنخلة(١) فاقتتلوا، ولما اشتد البأس وحميت قيس، احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله وله عشرون سنة . ثم ان قيسا قالوا لخصومهم : انا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا الى بلادهم يحرض بعضهم بعضا . فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكانت معها ثقيف وغيرها وجمعت قريش جموعها من كنانة والاحابيش وهم حلفاء قريش وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه اخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم ،وكان على بني أمية حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفا وسنا ، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوما من أشد أيام العرب هولا ، ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمي يوم الفجار . وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان . وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرا ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الامور حتى الف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم .

---

(١) موضع بين مكة والطائف .

حلف الفضول

وعند منصرف قريش من الفجار تداعوا لحلف الفضول ، وأول من دعا اليه الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وبنو أسد ابن عبد العزى في دار ابن جدعان ، فتعاقدوا وتعاهدوا الا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها او من غيرهم الا قاموا معه حتى ترد اليه مظلمته • وقد شهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه ، وقال بعد ان شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبدالله جدعان ما أحب لي به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » •

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة سافر الى الشام المرة الثانية . وذلك ان خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى كانت ذات شرف ومال وتجارة تبعث بها الى الشام ، تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة ، فلما سمعت عن محمد وأمانته وصدقه أرسلت اليه وقالت: انه دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم اخلاقك ، وأنا اعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك . واستأجرته فخرج في تجارة لها الى سوق بصرى مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحا عظيما •

وظهر لمحمد في هذه السفرة من البركات ما حببه في قلب ميسرة غلام خديجة •

زواجه خديجة

فلما عادا الى مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرت من محمد ودست

له من عرض عليه الزواج بها ، وكانت سنها نحو الاربعين ، وهي من أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهم شرفا واكثرهم مالا ، فأجاب . فأرسلت الى عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى فحضر ، وتزوجها رسول الله بحضور أعمامه .

وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضىء [1] معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعله لنا بيتا محجوبا وحرما آمنا وجعلنا حكام الناس ، ثم ان ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل شرفا ونبلا وفضلا وان كان في المال قل فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) . وعلى ذلك تم الامر . وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام .

ذكر بناء البيت

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة ، أي قبل بعثته عليه السلام بخمس سنين ، جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة . فاقتسمت القبائل العمل لبنائها ، وكان الذي يبنيها باقوم الرومي بمساعدة نجار مصري ، فلما انتهوا الى وضع الحجر الاسود حدث بين القبائل خلاف في أيها تختص بشرف وضعه ، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، ثم انهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا ، وكان أسن رجل في قريش اذ ذاك أبو أمية

---

(١) أصل .

ابن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم ، فقال لهم : يا معشر قريش لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه ، فقالوا : نكل الامر لاول داخل • فكان اول داخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الامين رضيناه ، هذا محمد ، واطمأنوا له لما عرفوه من وفور عقله وسداد رأيه ، فلما انتهى اليهم واخبروه الخبر طلب رداء ووضع عليه الحجر وامر القبائل فأمسكت بأطرافه ورفعوه حتى اذا وصل الى مكانه في البناء في الركن الشرقي اخذه هو فوضعه بيده • وكانت النفقة قد بهظتهم فقصروا بناءها على ما هي عليه الآن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة : « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ، ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة آذرع من الحجر ، فان قريشا استصغرتها حينما بنت الكعبة » •

معيشته عليه السلام قبل البعثة

لم يرث رسول الله صلى الله عليه وسلم من والده شيئا ، بل ولد يتيما عائلا ، ولما بلغ أشده كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع في البادية ، وكذلك كان عمله لما رجع الى مكة ، كان يرعاها لاهلها على قراريط •

ولما شب عليه الصلاة والسلام كان يتجر ، وكان له شريك يدعى السائب بن أبي السائب • وذهب بالتجارة لخديجة رضي الله عنها الى الشام على جعل يأخذه • ثم تزوجها وصار يعمل في مالها ويأكل من نتيجة عمله •

سيرته قبل النبوة

كان عليه السلام أحسن قومه سيرة وأطهرهم سريرة وأعلاهم أخلاقا

وأصدقهم حديثا واكثرهم امانة ، فلقبه قومه بالامين • لم يعهد عليه كذب ولا رياء ولا لهو • وقد شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر !! لا والله ما هو بساحر . قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه • ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . ورد ذلك في أول صحيح البخاري ، وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها وبغضت اليه الاوثان بغضا شديدا حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيدا مما يقوم به عبادها ، وقال عليه السلام : « ما هممت بقبيح مما يهم به أهل الجاهلية الا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لاهله يرعاها أبصر لي غنمي حتى اسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال نعم ، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا فلان تزوج فلانة ، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني فنمت فما أيقظني الا مس الشمس ، فرجعت الى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فاخبرته • ثم عداني مرة أخرى مثل ذلك •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ما هممت بغيرهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى اكرمني الله عز وجل بنبوته •

وذكر الوافدي عن أم أيمن قالت : كانت « بوانة » صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلف عنده وتعكف عليه يوما الى الليل في

كل سنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك . فغضب عليه أبو طالب وغضبت عماته أشد الغضب ، ولم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقلنا : ما دهاك ؟ قال : انـي أخشى أن يكون بي لمم ، فقلنا ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وكان فيك من خصال الخير ما كان ، فما الذي رأيت ؟ قال : اني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه . قالت أم ايمن : فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ صلوات الله عليه وسلامه .

وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب ، وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعا عظيما ، وذلك كله من الصفات التي يجلي الله بها رسله وانبياءه ليكونوا على استعداد لتلقى الوحي ، فهـم معصومون من الادناس قبل النبوة وبعدها . قبل النبوة تأهبا لما سيسند اليهم وبعدها ليكونوا قدوة لامهم وشعوبهم .

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذلك الزمن ونوه فيها بذكر كثير من الانبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم ، فمما جاء فيها تبشيرا برسولنا الكريم خطابا لسيدنا موسى عليه السلام (١): (وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه ، فأما النبي يجترىء على بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره بـه أو باسم آلهة أخرى فليقتل . واذا احببت أن تميز بين النبي الصادق

(١) الاصحاح الثامن سفر التثنية .

والكاذب فهذه علامتك • ان ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) ويقول اليهود ان هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبيا آخر غير المسيح فانهم [1] أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت ايلياء ؟ فقال لا • فقالوا : أنت المسيح ؟ فقال : لا ، فقالوا : أنت النبي ؟ فقال : لا ، فقالوا ما بالك اذا تعمد اذا كنت لست ايليا ولا المسيح ولا النبى ، فهذه تدل على أن التوراة تبشر بايليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح ، ثم ان التوراة تقول في صفة النبي انه مثل موسى وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني اسرائيل نبي مثل موسى وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفترى على الله يقتل ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة « ولوْ تقَوَّل علينْا بعْضَ الأقاويلِ لأخذْنا مِنْه باليَمينِ ثُمَّ لقطَعنْا مِنْه الوَتينَ » [2] ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الالداء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها الى الله ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطمينا لخاطره في سورة المائدة « والله يعصمك من الناس » أكان يعجز الله وهو القادر على كل شيء أن يعاقب من ينسب اليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى : « أمْ يقولونَ افترَى على الله كذِباً فإن يشاءَ اللهُ يخْتِمْ على قلبِكَ ويَمحُ اللهُ الباطِلَ ويُحِقُّ الحَقَّ بِكَلماتِه إنَّهُ عليمٌ بذات الصُّدورِ » وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الاخبار بما سيأتي ، وقد أخبر النبي عليه السلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ومنها مالا ينفع معه الحدس والتخمين كالاخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهرا شديدا

(١) الاصحاح الاول من انجيل يوحنا .
(٢) عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه .

حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم . فالاخبار اذا بأن الروم سيردون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون الا من عند الله ، ولذلك استغربه جدا بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله ان شاء الله تعالى .

وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبدالله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام فقال : أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : « يا أَيُّها النبيُّ إنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً » . وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب (١) في الاسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

وروى مثله عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم وكذلك كعب الاحبار وفي بعض طرق الحديث : ولا صخب في الاسواق ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدي امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وارفع به بعد الخمالة وأسمي به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهوا ءمشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس . وقد أخبر عليه السلام عن صفته في التوراة فقال

(١) شديد الصوت .

وهو الصادق الامين عبدي أحمد المختار مولده ومهاجره بالمدينة أو قال طيبة وأمته الحمادون الله على كل جال .

تبشير الانجيل

بشر عيسى عليه عليه السلام قومه في الانجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف « وإذْ قال عيسى ابنُ مَرْيَمَ يا بَني اسرائيلَ إنّي رسُولُ الله إليْكُمْ مُصَدّقاً لِما بينَ يَديَّ مِنَ التَّوْراةِ ومُبَشّراً بِرَسولٍ يأتي مِنْ بِعْدي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق الا على نبينا فقال انه يوبخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم « وَمَا يَنْطِقُ عن الْهَوى . إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يوحى » وقد ورد في انجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب (١) الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة .

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الاحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر ، فقد حدث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا انما دعانا للاسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من أحبار يهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث

---

(١) ترجم الى العربية وهو الآن مطبوع بمصر .

الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم. فكثيرا ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمدا أجبنا حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا وكفروا وانما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وارم لان من صفته عليه السلام في كتبهم أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة . وكان آمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيرا ما يقول : اني لاجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيسا فكان يقول له: يا سليمان، ان الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.وهذا الحديث كان من أسباب اسلام سلمان . ولما راسل عليه السلام ملوك الارض لم يهن كتابه الا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب . أما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم فأكرموا وفادة رسله ومنهم من آمن كالنجاشي ومنهم من ردّ ردا لطيفا وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ومنهم من هادى كالمقوقس ولم يكن عليه السلام في قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك الا لانهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن . أما ما سمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو مالا يدخل تحت حصر وليس بعد ما ذكرته الك زيادة لمستكثر ومع ذلك كله فالاعمال التي جاد الله بها على يديه والاقوال التي أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته . وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد هداك الله الى الصراط السوي .

بدء الوحي

لما بلغ صلى الله عليه وسلم الاربعين من عمره ، وكان ذلك في أول شباط (فبراير) سنة ٦١٠م بديء من الوحي بالرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا تحققت كما يراها . وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الامور كلها حتى تصل الى درجة الكمال .

ثم حبب اليه عليه السلام الاختلاء بنفسه والتعبد بعيدا عن الناس وعن ظلمات هذا العالم ، فكان يعتزل أهله وقومه ويمضي في غار حراء وهو جبل على مقربة من مكة ، تارة عشر ليال وتارة اكثر الى شهر . وكان يعبد الله على دين ابراهيم عليه السلام ، وكان يأخذ معه ما يكفيه من الزاد فاذا فرغ عاد الى خديجة فيتزود مثلها .

فبينما هو قائم في بعض الايام على الجبل اذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله الى هذه الامة ثم قال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقاريء فانه عليه السلام أمي لم يتعلم القراءة قبلا فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقاريء . فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله ، فقال: اقرأ . قال: ما أنا بقاريء ، فأخذه فغطه الثالثة ، ثم أرسله فقال : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله خائفاً مروعا فدخل على زوجته خديجة وقال لها : زملوني زملوني (أي لفوني في ثوب) لتزول عنه هذه الرعدة التي المت به من الذعر . فلما زال عنه ما كان ألم به من الذعر أخبر خديجة بما رآه وخاف أن يكون الذي ظهر له شيطان فقالت : « كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل

الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والاوهام ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك » ثم ان خديجة أخذته وانطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان مطلعا على الكتب القديمة وأحوال الانبياء ، وكان اعتزل الاوثان قبل الاسلام ، وامتنع من أكل ذبائحها ، وتنصر ، فقالت له خديجة : يا ابن عم، اسمع من ابن اخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله (صلعم) خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

فترة الوحي

ثم فتر الوحي نحو أربعين يوما ليشتد شوق الرسول للوحي وقد كان ، فان الحال اشتد به عليه السلام حتى حدثته نفسه بالانتحار كدرا على ما فاته من هذه الرتبة العالية ، فكان كلما صعد الى ذروة جبل حدثته نفسه بالتردي منه ، وكلما هم بذلك ، ظهر له جبريل فقال له : انت رسول الله حقا فيرجع عن عزمه ، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نورالدين فعاد اليه الوحي .

عود الوحي

فبينما هو يمشي ذات يوم اذ سمع صوتا من السماء فرفع اليه بصره فاذا الملك الذي جاءه بحراء جالس بين السماء والارض فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الاولى فرجع الى أهله وقال : دثروني دثروني (أي غطوني) . فأنزل الله تعالى عليه « يأيُّها المُدَّثِّرْ . قُمْ فأنْذِرْ » حذر

الناس من عذاب الله ان لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » خصه بالتعظيم ولا تشرك معه في ذلك غيره « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » لتكون مستعدا للوقوف بين يدي الله اذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذرا نجسا « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » أي أهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » ولا تهب أحدا هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت فهذا ليس من شأن الكرام « وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم الى الله .

الدعوة سراً

فقام عليه السلام صادعا بالامر ودعا لعبادة الله أقواما جفاة لا دين لهم الا أن يسجدوا لاصنام لا تنفع ولا تضر ولا حجة لهم الا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الاخلاق الا ما كان مرتبطا بالعزة والانفة وهو الذي كثيرا ما كان سببا في الغارات والحروب واهراق الدماء فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه فذوو العقول السليمة بادروا الى التصديق وخلع الاوثان . ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته ، وكان أول من لبى دعوته وسطع عليه نور الاسلام خديجة بنت خويلد زوجه ، وعلي بن أبي طالب ابن عمه وكان مقيما عنده وهو اذ ذاك يناهز الحلم ، فكان تابعا للنبي في كل أعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الاوثان واتباع الهوى ، وأجاب أيضا زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي مولاه عليه السلام وكان يقال له زيد بن محمد لانه لما اشتراه أعتقه وتبناه وأجابت أيضا أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد . وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر التيمي القرشي ، كان صديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الاخلاق ولم يعهد عليه كذبا منذ اصطحبا فأولما أخبره برسالة

الله أسرع بالتصديق وقال : بأبي أنت وأمي أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله . كان رضي الله عنه صدرا معظما في قريش على سعة من المال وكرم الاخلاق وكان من أعف الناس سخيا يبذل المال محببا في قومه حسن المجالسة ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير فكان يستشيره في أموره كلها وقال في حقه: (ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر) وكانت الدعوة الى الاسلام سرا حذرا من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم ، فكان عليه السلام لا يدعو الا من يثق به . ثم ان أبا بكر دعا من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع (منهم) عثمان بن عفان وكان شابا لا يتجاوز العشرين ولما علم عمه الحكم باسلامه أوثقه كتافا وقال : ترغب عن دين آبائك الى دين مستحدث !!! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه . (ومنهم) الزبير بن العوام وكان شابا لا يتجاوز السادسة عشر وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع الى دين آبائه فقواه الله بالثبات (ومنهم) عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسماه عليه السلام عبدالرحمن (ومنهم) سعد بن أبي وقاص . ولما علمت أمه باسلامه قالت له : يا سعد بلغني أنك قد صبأت ! فوالله لا يظلني سقف من الحر والبرد وأن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد . وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فجاء سعد الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشكا اليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليما قول الله تعالى في سورة العنكبوت « وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وإنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ » وصاه جلَّ ذكره بوالديه وأمره بالاحسان اليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما اذا دعواه للاشراك فالمعصية

متحتمة لان كل حق وان عظم ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال : الي مرجعكم من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم • (ومنهم) طلحة بن عبيدالله وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته ، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ورأى الدين متينا بعيدا عما عليه العرب من المثالب بادر الى الاسلام ، وكان من السابقين الى دعوة رسول الله عبدالله بن مسعود ، كان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو اليه عليه السلام من مكارم الاخلاق ترك عبادة الاوثان ولزم رسول الله ، وكان خادمه الامين وصاحب سره ، ورفيقه في حله وترحاله ، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ويلبسه نعليه اذا قام ،فاذا جلس أدخلهما في ذراعيه • (ومنهم) أبو ذر الغفاري وكان من أعراب البادية فصيحا حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لاخيه :اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلق الاخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم رجع الى أبي ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الاخلاق ويقول كلاما ما هو بالشعر ، فقال ما شفيتني مما أردت • فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله حتى اذا أدركه الليل رآه علي فعرف أنه غريب فأضافه عنده ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه الا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمر به علي فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أضيف به بالامس ، فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ،حتى

اذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك ثم قال له علي : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : ان أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني فعلت ، ففعل فأخبره قال : فانه حق وهو رسول الله فاذا أصبحت فاتبعني ، فاني ان رأيت شيئا أخافه عليك قمت كأني أريق الماء فان مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه ، فقال له النبي : ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري ، قال : والذي نفسي بيده لا صرخن بها بين ظهرانيهم • فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه وقال : ويلكم أو لستم تعلمون أنه من غفار ؟ وان طريق تجارتكم الى الشام عليه ! فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه (رواه البخاري) • كان يضرب به المثل في الصدق، والزهد، وهو أول من حيى رسول الله بتحية الاسلام • (ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوي القرشي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن هاشم بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سلمة ابن عبدالله بن عبد الاسد المخزومي القرشي ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه أم سلمة وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي وأخواه قدامة وعبدالله والارقم بن أبي الارقم المخزومي القرشي، (ومن) السابقين الاولين خالد بن سعيد بن العاص : كان أبوه سيد قريش اذا اعتم لم يعتم قرشي اجلالا له ، وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء اليه وقال : إلام تدعو يا محمد ؟ قال: أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والاحسان الى والديك ،وأن

لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوي قرباك ، وأن توفي لمن عاهدت: فأسلم رضي الله عنه ، وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت . فانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة . وأسلم بعده أخوه عمرو ابن سعيد . وهكذا دخل هؤلاء الاشراف في دين الاسلام بدافع الاقتناع ، اذ لا رغبة اذ ذاك ولا رهبة تأخذ بأنفسهم وألبابهم الى تغيير عقائدهم . وكان كل هؤلاء يخشون قريشا فكانوا يخفون صلاتهم وعبادتهم ولما اقتضى الحال أن يجتمع رسول الله بالمهتدين لتعليمهم اختار بيت الارقم للاجتماع بهم فيه وكان عددهم نحوا من ثلاثين .

الجهر بالتبليغ

لبث رسول الله على ذلك مدة ثم أمر بالجهر بالدعوة بقوله تعالى : « فاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكينَ » فبدل الدعوة سرا بالدعوة جهرا ممتثلا أمر ربه واثقا بوعده ونصره فصعد على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش ، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر فجاء أبو لهب ابن عبد المطلب وقريشا فقال عليه السلام : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنا ؟فأنزل الله في شأنه « تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ . مَا أغْنى عَنْهُ ما لَهُ وما كَسَبَ . سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأتُهُ حَمّالَةُ الحَطَبِ . في

جيدِ هَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لانها كانت تقول على رسول الله الاكاذيب في نوادي النساء . أمر رسول الله بان ينذر عشيرته الاقربين وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس وذلك في قوله تعالى « وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ . واخْفِضْ جَنَاحكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » فجمعهم عليه السلام وقال لهم ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا . فتكلم القوم كلاما لينا الا عمه أبا لهب فانه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فان سلمتوه اذاً ذللتم وان منعتموه قتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

هزأت قريش من دعوة رسول الله ، فأخذت تسخر منه كلما مر فكان سفهاؤهم يقولون عند مروره : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء ! وهذا غلام عبدالمطلب يكلم من السماء ، لا يزيدون على ذلك . فلما أخذ ينزل القرآن في النعي عليهم والتشهير بهم والازراء باحلامهم والطعن في آلهتهم ، تذمرت قريش وذهب وفد منهم الى عمه أبي طالب سيد بني هاشم وكان يحميه منهم ، فقالوا له : أخل بيننا وبين محمد أو كفه عن سب آلهتنا وتسفيه أحلام آبائنا فردهم ردا جميلا ، فأمعن رسول الله في دعوته وخطته ، فذهب وفد آخر الى أبي طالب وقال له : ان لك سنا وشرفا ومنزلة منا وانا قد طلبنا منك ان تنهي ابن أخيك فلم تنهه عنا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله واياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم

انصرفوا • فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخي ان القوم جاءوني فقالوا لي كذا فأبق على نفسك ولا تحملني من الامر مالا أطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ثم بكى وولى • فقال أبو طالب أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه فقال اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك •

الايذاء

لما أمعن رسول الله في الدعوة ولم يبال بتهديد ولا وعيد ، كبر على قريش ذلك ، وتألب عليه رؤوس الصناديد منهم آبو جهل عمرو ابن هشام ابن المغيرة المخزومي القرشي قال يوما : يا معشر قريش ا ن محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم اني أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله ، فاذا سجد في صلاته رضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك او امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا : ما لك يا أبا الحكم؟ قال قمت اليه لافعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لي فحل من الابل والله ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني ! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل ولو دنا لاخذه •

وكان أبو جهل كثيرا ما ينهي الرسول عن صلاته في البيت ، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي : ألم أنهك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله القول

وهدده ، فقال : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا ؟ فأنزل الله تهديدا له في آخر سورة العلق « كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » ومن أذيته للرسول أن سلط عليه يوما عقبة ابن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبدشمس فالقى على ظهر رسول الله وهو يصلي فرث جزور ، ولم يستطع أحد من المسلمين الذين كانوا بالبيت معه على رفعه عن ظهره خوفا من المشركين . ولم يزل رسول الله (صلعم) ساجدا وعليه الفرث حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته . فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواما ، قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر .

ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن هذا ابتاع جمالا من رجل يقال له الاراشي ، فمطله بأثمانها ، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله ، فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل ، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال محمد ، فخرج منتقعا لونه فقال له الرسول : أعط هذا حقه، فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه، فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت ! قال ويلكم والله ما هو الا أن ضرب علي بابي حتى سمعت صوتا ملئت منه رعبا وان فوق رأسي فحلا من الابل ما رأيت مثله .

(ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبدالمطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الاباعد فكان يرمي القذر على بابه لانه كان جارا له فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بني عبدمناف أي جوار هذا ؟ وكانت

تشاركه في قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيرا ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصا بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب • (ومن المستهزئين) عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه السلام والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد ، فبلغ ذلك أبيّ بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقا له فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له • قال أبيّ : وجهي من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم تطأ عنقه وتبصق في وجهه وتلطم عينه فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه في سورة الفرقان « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً • يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً • لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً » ومن أشد ماصنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال : بينما النبي يصلي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

ومن جماعة المستهزئين العاصي بن وائل السهمي القرشي والد عمرو ابن العاص كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول : غر محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا الا الدهر ، فقال الله ردا عليه في دعواه في سورة الجاثية : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ » •

(ومنهم) الاسود بن عبدالمطلب الاسدي ابن عم خديجة كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة التطفيف « إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ • وَإذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ • وَإذا انْقَلَبُوا إلى أهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ • وَإذا رَأوْهُمْ قالُوا إنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ » •

ومنهم الوليد بن المغيرة عم أبي جهل ، كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش ، سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقومه بني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلامًا ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى ، فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها ، فقال ابو جهل : أنا أكفيكموه فتوجه وقعد اليه حزينا وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ! وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا ؛ ثم قالوا فما هو ؟ ففكر قليلا ثم قال : ما هو الا ساحر ، اما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فارتج النادي فرحا فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطبا لرسوله « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً • وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً • وَبَنِينَ شُهُوداً • وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً • ثُمَّ يَطْمَعُ أنْ أزِيدَ • كَلاَّ إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً • سَأرْهِقُهُ صَعُوداً • إنهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ • ثُمَّ أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ • فَقالَ إنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إنْ هٰذا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » .

ومن المستهزئين النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن

قصي ، كان اذا جلس رسول الله مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما اصاب من قبلهم قال النضر هلموا يا معشر قريش فاني أحسن منه حديثا ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم احاديثهم ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الاولين، وفيه نزل في سورة لقمان « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى في التنزيل في سورة الحجر « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » وقد وضع الله جل ذكره الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه لان الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة .

إسلام حمزة
واضطهاد قريش لأصحاب رسول الله

وكان بعض ايذائهم هذا سببا لاسلام عمه حمزة بن عبد المطلب فقد أدركته الحمية عند ما عيرته بعض الجواري بايذاء أبي جهل لابن أخيه فتوجه الى ذلك الشقي وغاضبه وسبه وقال كيف تسب محمدا وأنا على دينه ، ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس اسلاما وأشدهم غيرة على المسلمين وأقواهم شكيمةعلى أعداء الدين حتى سمي أسد الله .

وكما أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم أوذي اصحابه

واضطهدوا اضطهادا شديدا لاتباعهم له ، خصوصا من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه .

ومن الذين أوذوا في الله بلال بن رباح وكان مملوكا لأمية بن خلف الجمحي القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله . وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول أحد أحد . مر به ابو بكر يوما فقال يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فاشتراه منه وأعتقه ، فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل « فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لا يَصْلاهَا إلاّ الأَشْقَى . الَّذي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » بما يعطيه الله في الآخرة جزاء أعماله . وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن الا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضي الله عنه وأرضاه . ومنهم حمامة ام بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف ، ومنهم امرأة تسمى زنيزة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا ايماناً . وكان ابو جهل يقول ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا اليه أفتسبقنا زنيزة الى رشد فأنزل الله في سورة الأحقاف « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذا لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ » .

ومن أعتق أبو بكر بعد شرائه أم عنيس كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الاسود بن عبد يغوث •

وممن عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت • أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فان أبا جهل كان يجعل له دروعا من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه اياها فقال المسلمون : كفر عمار ، فقال عليه السلام : عمار مليء ايمانا من فرقه الى قدمه وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جل ذكره في سورة النحل : « مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وممن أوذي في الله خباب بن الارت عبد أم أنمار وكان في الجاهلية قينا يعمل السيوف بمكة ، ولما اسلم استضعفه المشركون فعذبوه بالنار ليرجع عن دينه ، فصبر وما زاده ذلك الا ايمانا • وجاء مرة الى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال يا رسول الله الا تدعو الله لنا ؟ فقعد عليه السلام محمرا وجهه فقال : انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت (١) لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، قال ذلك عليه السلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا تصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة اللهم

(١) حضرموت : بلاد في جنوبي جزيرة العرب ، بين المملكة السعودية واليمن وعدن وبحر العرب .

الا ان دلك وحي يوحى اليه • ثم أنزل الله تعالى تثبيتا للمؤمنين أول سورة العنكبوت « ألم • أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ • وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

وممن أوذي في الله أبو بكر الصديق ولما اشتد عليه الاذى أجمع أمره على الهجرة من مكة الى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد فلقيه ابن الدغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة فقال : الى أين يا أبا بكر ؟ فقال : اخرجني قومي فأريد أن أسيح في الارض وأعبد ربي • فقال ابن الدغنة : مثلك يا أبا بكر لا يخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه وطاف في أشراف قريش ، فقال لهم : أبو بكر لا يخرج مثله • أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن ، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لابي بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بذا لابي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان رجلا بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : انا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه

بفناء داره فعل ، وان ابى الا ان يعلن ذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لابي بكر الاستعلان • فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فاما أن تقصر على ذلك واما ان ترجع الي ذمتي ، فاني لا احب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له • فقال أبو بكر فاني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخاري) وكان ذلك سببا لايصال اذى عظيم الى ابي بكر رضي الله عنه •

ولما رأى المشركون ان الاضطهاد لا يجدي نفعا ، اجتمعوا في ناديهم ليروا رأيهم في رسول الله واصحابه • فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيدا مطاعا في قومه : يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا عله يقبل بعضها فنعطيه اياها ويكف عنا ، فقالوا يا أبا الوليد فقم اليه فكلمه • فذهب الى رسول الله وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت احلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها : فقال عليه الصلاة والسلام ، قل يا ابا الوليد اسمع •

فقال يا ابن اخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع امرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم ،

قال فاسمع مني فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم اول سورة فصلت :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ • حٰمۤ • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ • حٰمۤ • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ • كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ • وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ • الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ • قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ • وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ • ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ • فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ • فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ • إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » .

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله مـا هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الـذي

سمعت نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا لقد سحرك محمد فقال هذا رأيي ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله في ذلك « قُلْ يا أيُّها الكافرونَ . لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ . وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ . وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ . وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ . لَكُمْ دينُكُمْ وَلِيَ دينْ . » فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله ، فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن يخرج من القرآن ما فيه من طعن على آلهتهم وآبائهم ، فأنزل الله جوابا لهم في سورة يونس « قُلْ ما يَكونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي إنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يوحى إلَيَّ » .

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات فاجتمعوا وقالوا يا محمد ان كنت صادقا فأرنا آية نطلبها منك وهي ان تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين ، فقال رسول الله اشهدوا . وهذه القصة رواها عبدالله بن مسعود وهو من السابقين الاولين ، رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبدالله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر ، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر « اقْتَرَبَتِ الساعةُ وانْشَقَّ القَمَرُ » فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم لقد سحركم ابن ابي كبشة فأنزل الله فيهم « وَإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك الا التعنت والعناد فمنها أن قالوا كما في سورة الإسراء « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ » ولم يجبهم الله الا بقوله « قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسولاً » لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام « وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ » وكيف يرجى الخير ممن قالوا كما في سورة الأنفال « اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ » ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه، وهذه سنة من سنن الانبياء اذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وانهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الاسراء « وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيات إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلونَ » .

هجرة رسول الله إلى الحبشة

لما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا الى سياسة القوة التي اختارها قوم ابراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا « حرقوه وانصروا آلهتكم » كما في سورة الانبياء ، أما هؤلاء فازدادوا بالاذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا بابا الا ولجوه ، فقال عليه السلام لاصحابه تفرقوا في الارض فان الله سيجمعكم ، فسألوه عن الوجه فاشار بالهجرة الى الحبشة .

عند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم كما أشار عليه السلام وهذه هي أول هجرة من مكة وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وأبو

سلمة وزوجه وأخوه لامه أبو سبرة وزوجه أم كلثوم وعامر بن ربيعة وزوجه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وسهل بن البيضاء والزبير بن العوام وجلهم من قريش ، وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم الى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا القليل .

إسلام عمر

وفي هذه الاثناء أسلم عمر بن الخطاب العدوي القرشي وكان من أشراف قومه وصناديدهم بعدما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم ، قالت ليلى احدى المهاجرات لارض الحبشة مع زوجها : كان عمر ابن الخطاب من أشد الناس علينا في اسلامنا ، فلما ركبت بعيري أريد أن أتوجه الى أرض الحبشة اذا أنابه فقال لي : الى أين يا أم عبدالله ؟ فقلت قد آذيتمونا في ديننا نذهب في أرض الله حيث لا نؤذى . فقال : صحبكم الله . فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال : ترجين أن يسلم ؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ، ولكن حصلت له بركة دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فانه قال قبيل اسلامه : « اللهم أعز الاسلام بعمر » وكان اسلامه في دار الارقم ابن أبى الارقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها ، وقد حقق الله باسلامه ما رجاه عليه السلام ، فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) فانه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد ففعل ، وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم ، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع

جمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمي وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر : ما بالك ؟ فقال : زعم قومك انهم سيقتلونني أن أسلمت ، قال : لا سبيل اليك فأنا لك جار • فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ قال لا سبيل اليه • فرجع الناس من حيث أتوا •

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة اشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا الى مكة حيث لا تتيسر لهم الاقامة فيها لانهم قليلوا العدد وفي الكثرة بعض الانس وأضف الى ذلك انهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة •

كتابة الصحيفة

لما ضاق ذرع المشركين عن احتمال رسول الله واصحابه عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم النبي عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على أبي طالب ان يعطوه سيدا من شبانهم يتبناه ويسلم اليهم ابن أخيه فقال: عجبا لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف واخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب ابي طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب

فانه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عمهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب امر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضا على الاغتراب فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة وكان من الرجال جعفر بن ابي طالب وزوجه والمقداد بن الاسود وعبدالله بن مسعود وعبيدالله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت ابي سفيان وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمين وهم الاشعريون أبو موسى وبنو عمه . ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشي ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي الا اهانة لما خاطبوه به من اخفار ذمته في قوم لاذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريبا من ثلاث سنوات وجدوا فيها كل شدة وضنك ، فهزت الاريحية خمسة من رجال قريش فطلبوا نقض هذه الصحيفة الظالمة ، وهم هشام بن عمرو وزهير ابن ابي امية وابو البختري ابن هشام وزمعة بن الاسود، فاتفقوا ليلا على أن يقترحوا نقض هذه الصحيفة فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة . فقال أبو جهل : كذبت ، فقال زمعة لابي جهل : أنت والله أكذب ! ما رضينا كتابتها حين كتبت ، فقال أبو البختري : صدق زمعة ، وقال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير

ذلك . وصدق على ما قيل هشام بن عمرو فقام اليها المطعم بن عدي فشقها وكانت الارضة قد أكلتها فلم يبق فيها الا ما فيه اسم الله وقد أخبر النبي عليه السلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر فخرج القوم الى مساكنهم بعد هذه الشدة .

. وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجري الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته ما ذكر منها في كتبهم وكانوا عشرين رجلا أو قريبا من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ! فقالوا سلام عليكم لانجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله في ذلك في سورة القصص « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يستحي لمزيد عناده أن يقول : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وفاة خديجة رضي الله عنها

وبعد خروجه صلى الله عليه وسلم من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها فحزن عليها حزنا عظيما ولا غرابة فهي أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه ، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا ابراهيم فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن ابي طالب بعد وفات فاطمة ، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان الاولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها الى الحبشة والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها ، ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن ابي طالب ، وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغارا ولم يعش بعد رسول الله من أولاده الا فاطمة عاشت بعده قليلا .

زواج سودة

وفي الشهر الذي ماتت فيه خديجة تزوج رسول الله سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل اقل منها نسبا وشرفا .

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر تزوج عائشة بنت ابي بكر وهي لاتتجاوز السابعة

من عمرها ولم يتزوج عليه السلام بكرا غيرها ولـم يدخل بها الا بعـد سنين •

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفي عمه ابو طالب الذي كان يمنعه من أذى اعدائه ، ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه ، لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته ، وفيه نزل في سورة القصص « إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . ولما مات ابو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب ، واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهوسائر ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة الها واحدا فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف الا ابو بكر فانه تقدم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟! •

هجرته عليه السلام إلى الطائف

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به هاجر الى الطائف ليستنصر بني ثقيف وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، فلما كلم رؤساءهم ردوا عليه ردا خشنا وارسلوا عليه سفهاءهم وغلمانهم يضربونه بالاحجار وهـو راجع ، فما زالوا به حتى أدموا عقبه • وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه الى ان انتهى الى شجرة كرم واستظل بها ، وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه ، وكانا في البستان ، فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلا « اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني أن لم يكن بك غضب فلا ابالي » فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا اليـه

بقطف من العنب مع مولى لهما نصراني اسمه عداس فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عداس هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له عليه السلام : من أي البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصراني من نينوى فقال له عليه السلام من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ، قال : وما علمك بيونس ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عداس أسلم ، واتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال ان الله امرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك فقال عليه السلام (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) فقال جبريل صدق من سماك الرؤوف الرحيم • ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون الى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا الى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل في سورة الاحقاف « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ • قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً نُزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ • يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ • وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً • يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » .

الاحتماء بالمطعم بن عدي

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهليها عليهم فأرسل عليه السلام الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجاب الى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله الى المطاف فقال له بعض المشركين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال بل مجير ، قالوا اذا لا تخفر ذمتك .

وبينما هو بمكة وفد عليه الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسي ، وكان عظيما في قومه ، شاعرا ، غنيا ، كثير الضيافة ، فلما قرأ عليه القرآن أسلم ، فقال له رسول الله : اذهب الى قومك فادعهم الى الاسلام ودعا لهم رسول الله فقال : اللهم اهد دوسا ، فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم . وستأتي وفادته على الرسول ثانية بقومه في المدينة .

الاسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالاسراء والمعراج ، أما الاسراء فهو توجه ليلا الى بيت المقدس ورجوعه من ليلته ، وأما المعراج فهو صعوده الى العالم العلوي ، وقد قال جمهور أهل السنة ان ذلك كان بجسمه الشريف وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول من قال ان محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله . والاسراء مذكور في القرآن الكريم ، قال تعالى في أول سورة الإسراء « سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصى الَّذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ » وأما المعراج فقد ذكره

البخاري ومسلم ونقله القاضي عياض في شفائه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيت بالبراق «وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه » قال فركبتــه حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الانبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه. ففتح لنا فاذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه «ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الاول ففتح لنا واذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فذكر مثله فاذا أنا بادريس فرحب بي ودعا لي بخير قال تعالى في سورة مريم « رفعناه مكانا عليا » ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فذكر مثله فاذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فذكر مثله فاذا أنا بموسى فرحــب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فذكر مثله فاذا أنا بابراهيم مسندا ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلــة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله الي ما أوحى ففرضــ علي وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقــال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجــع الى ربك فسله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلــك فاني قد بلوت بني اسرائيل قبلــك

وخبرتهم قال فرجعت الى ربي وقلت له يا ربي خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقلت حط عني خمسا قال ان أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فسله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئا ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فسله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه •

فلما أصبح رسول الله غدا الى نادي قريش فجاء اليه أبو جهل فحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له ، فقال أبو جهل : يا بني كعب ابن لؤي هلموا ، فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال الى أبي بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال : اني لاصدقه على أبعد من ذلك ، فسمي من ذلك اليوم صديقا •

ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعا موضعا فقالوا أما النعت فقد أصاب فأخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عير قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس

قد أشرقت فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد . ثم لم يزدهم ذلك الا كبرا وعنادا حتى قالوا هذا سحر مبين.

وفي صبيحة ليلة الاسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها فيصلى ركعتين اذا ظهر الفجر وأربع ركعات اذا زالت الشمس ومثلها اذا ضوعف ظل الشيء وثلاثا اذا غربت وأربعا اذا غاب الشفق الاحمر وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحا ومثلهما مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام .

عرض الاسلام على القبائل

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب . فكان عليه السلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه ، فكان بعضهم يرد ردا جميلا وآخرون ردا قبيحا . وكان من أقبح القبائل ردا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب . وطلب منه بنو عامر ان هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فقال : « الامر لله يضعه حيث يشاء » .

وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب ــ وهي مدينة بين مكة والشام ــ يقطنها قبيلتان احداهما من ولد الاوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان ، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين ، فكانوا دائما في شقاق ونزاع ، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وكان لهم الغلبة على يثرب أولا فحاربهم العرب حتى صاروا

ذوي النفوذ فيها والقوة ، وكان اليهود اذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبعث قد قرب زمانه ، ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الالفة حالفوا اليهودَ على أنفسهم فحالف الاوس بني قريظة وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع وآخر الايام بينهم يوم بعاث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج وأبو عامر الرهب من الاوس ، ولذلك كانت عائشة تقول : كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد خطر ببال رؤساء الاوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج فأرسلوا اياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله وقال هل لكم في خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا وقد أرسلني الله الى الناس كافة ثم تلا عليهم القرآن فقال أياس بن معاذ يا قوم هذا والله خير مما جئنا له ، فحصبه أبو الحيسر وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت •

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بني النجار ورافع بن مالك من بني زريق وقطبة بن عامر من بني سلمة وعقبة بن عامر من بني حرام وجابر بن عبدالله من بني عبيد بن عدي ودعاهم الى الاسلام والى معاونته في تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض انه النبي الذي كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه ، فآمنوا به وصدقوهوقالوا انا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل

أغر منك ووعدوه المقابلة في الموسم المقبـل ، وهذا هو بدء الاسـلام لعرب يثرب •

العقبة الاولى

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلا منهم عشرة من الخـزرج واثنان من الاوس وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع ابن مالك وذكوان بن قيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس ابن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج وأبو الهيثم ابن التيهان وعويم بن ساعدة وهما من الاوس فاجتمعوا به عند العقبـة وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهـم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معـروف فان وفوا فلهم الجنة وان غشوا من ذلك شيئا فأمرهم الى الله عز وجل ان شاء غفر وان شاء عذب ، وهذه هي العقبة الاولى • فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدري وعبد الله بن أم مكتوم وهو ابن خالة خديجة يقرآنهم القرآن ويفقهانهم في الدين ونزل مصعب على أحد المبلغين أبي أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الاوس والخزرج للاسلام• وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة اذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الاوس لاسيد بن حضير ابن عم سعد ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما فقام لهما أسيد بحربته فلما رآه أسعـد قال لمصعب هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه • فلما وقف عليهما قال ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما حاجـة فقال مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته وان كرهته فكففنا عنك ما تكره ، فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الاسلام وهداه

الله له فتشهد ورجع الى سعد فسأله عما فعل فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا فغضب سعد وقام لهما متغيظا ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للاسلام ورجع لرجال بني عبدالاشهل وهم بطن من الاوس فقال لهم : ما تعدونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا • قال كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الاشهل الا أجابه ، وقد انتشر الاسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث الا أمر الاسلام •

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الاولى قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم ، ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة فأمرهم أن لا ينبهوا في ذلك الوقت نائما ولا ينتظروا غائبا لان كل هذه الاعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الامر فيسعوا في نقض ما أبرم شأنهم مع رسول الله في أول أمره • ولما فرغ الانصار من حجهم توجهوا الى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الاول فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثا وسبعين رجلا منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الاوس ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب من بني النجار وأسماء بنت عمرو من بني سلمة ووافقهم رسول الله هناك وليس معه الا عمه العباس بن عبدالمطلب وهو على دين قومه ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقا له ، فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحدا ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم : ان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه

مسن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك والا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم • فقال كبيرهم المتكلم عنه البراء بن معرور : والله لو كان لنا في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ لنفسك ولربك ما أحببت • فقال : اشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم • فقال له الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهودا وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم عليه السلام ، وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أي ان طالبتم بدم طالبت به وان أهدرتموه أهدرته •

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب وأول من بايع أسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور ، ثم تخير منهم اثني عشر نقيبا لكل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس وهم أبو الهيثم بن التيهان وأسعد بن زرارة • وأسيد بن حضير • والبراء بن معرور ورافع بن مالك وسعد بن أبي خيثمة وسعد بن الربيع وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وعبدالله بن عمرو وعبادة بن الصامت والمنذر بن عمرو • ثم قال لهم : «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي » ، ولامر ما أراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركي قريش فجاءوا ودخلوا شعب الانصار وقالوا : يامعشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم وعبدالله بن أبي كبير الخزرج يقول : ما كان في قومي ليفتاتوا علي بشيء من ذلك •

هجرة المسلمين إلى المدينة

لما بلغ قريشا أن رسول الله عاهد أهل المدينة ازداد حنقهم عليه وعلى المؤمنين به ، فأقرهم رسول الله بالهجرة الى المدينة فأخذوا يتسللون اليها خفية خوفا من قريش • وأول من خرج أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة ومعه زوجه ، وتتابع المهاجرون فرارا بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم ما دام في ذلك رضى الله ورسوله • ولم يبق بسكة منهم الا أبو بكر وعلي بن أبي طالب وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة • وقد اراد أبو بكر الهجرة فقال له عليه السلام : على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعدادا لذلك •

دار الندوة

أما المشركون فاجتمعوا في دار ندوتهم وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها يتشاورون ما يصنعون في أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه فقال أحدهم نخرجه من أرضنا لنستريح منه ، فرفض هذا الرأي لانهم قالوا اذا خرج اجتمع عليه الناس لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فرفض هذا الرأي كسابقه لانهم قالوا ان الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ، ونحن أدرى الناس بمن

دخل في دينه حيث يفضلونه على الآباء والابناء ، فاذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن في غنى عنه ، وقال لهم طاغيتهم بل نقتله ، ولنمنع بني أبيه من الاخذ بثأره تأخذ من كل قبيلة شابا جلدا يجتمعون أمـام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحـد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهـم بل يرضون بالدية ، فأقروا هذا الرأي • وأجمعوا على تنفيذه •

هجرة النبي (صلعم)

من مكة الى المدينة

وكانت سنة ٦٢٢ م ، وبسنة دخوله المدينة يبتدىء التاريخ الهجري .

فعلم رسول الله (صلعم) بما أضمروه ، فنوى الهجرة وأخبر أبو بكر بذلك ، فطلب ان يصحبه ، واستأجرا عبدالله بن أرقط وكان دليلا ماهرا فدفعا اليه راحلتيهما وواعداه التقابل عند غار ثور على بعد ثلاث ليال من مكة • ثم فارق رسول الله أبا بكر على ان يقابله خارج مكة ليلا•

وكانت تلك الليلة التي تواعد القرشيون على تنفيذ ما أقروا عليه فاجتمعوا حول باب داره ، فلما جاء الموعد أمر عليا ان ينام مكانه كي يتحقق القرشيون أنه لم يبرح سريره لانهم كانوا ينظرون اليه من خروق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى عليا ببردته وخرج على القوم وهو يقـرأ « وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ » فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد ، ولم يزل عليه سائراً حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيـه . أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وانهم انما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبدالله هاجت عواطفهم فأرسلوا الطلب من كل جهة وجعلوا

الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدل عليه ، وقد وصلوا في طلبهم الى ذلك الغار الذي فيه طلبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه السلام « لا تحزن ان الله معنا » فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لاحد منهم التفاتة الى ذلك الغار بل صار أعدى الاعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب ، وكان يبيت عندهم عبدالله ابن أبي بكر وهو شاب نجيب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع أمرا يكتادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما فاذا خرج من عندهما عبدالله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر • ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسارا متبعين طريق الساحل ، وفي الطريق لحقهم طالبا سراقة بن مالك المدلجي وكان قد رأى رسل مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره • فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مدلج اذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال يا سراقة اني رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه فعرف سراقة أنهم هم ولكنه أراد أن يثني عزم مخبره عن طلبهم فقال : انك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ، ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ثم ركبها ثانيا وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت قائمتا فرس سراقة في الارض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لاثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى وداخله

رعب عظيم فناداهما بالامان فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم، ويقول سراقة : وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله فقلت ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهم بما يريد بهم الناس وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا بل قالا له : أخف عنا فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمن فأمر أبا بكر فكتب . وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله ، وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم يخرجون الى الحرة حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد أن أطالوا انتظارهم ، فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى فقال اليهودي بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم أي حظكم الذي تنتظرون ، فثاروا الى السلاح وقابلوه خارج المدينة . وكان ذلك في اليوم الثاني من ربيع الاول الذي يوافق ٢٠ ايلول (سبتمبر) سنة ٦٢٢ ميلادية . فنزل رسول الله في بني عمرو بن عوف بقباء .

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سنة اخوانه من الانبياء من قبله فما من نبي منهم الا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها ، من ابراهيم أبي الانبياء وخليل الله الى عيسى كلمة الله وروحه كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالا لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله .

أعمال مكة :

هذا ولنبين لك مجمل ما دعا اليه الرسول عليه السلام بمكة من

أصول الدين وذلك امران (الاول) الاعتقاد بوحدانية الله وأن لا يشرك معه في العبادة غيره سواء كان ذلك الغير صنما كما يفعل مشركو مكة أو أبا أو زوجة أو بنتا كما عليه بعض الطوائف الاخرى كالنصارى • ولولا الاعتقاد بوحدانية الله ما كلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الاخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافيا عن الناس • (الثاني) الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوما ثانيا للانسان يجازي فيه على ما صنعه في الدنيا ان خيرا فخير وان شرا فشر وعلى هذين الامرين جاء غالب الآي المكية فقلما نرى سورة من سور مكة الا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى • ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكةمن القرآن معظمه وهوما عدا ثلاثاوعشرين سورة منه وهي البقرة : آل عمران : النساء : المائدة : الانفال : التوبة : الحج : النور : الاحزاب : القتال : الفتح : الحجرات : الحديد : المجادلة: الحشر : الممتحنة: الصف : الجمعة :المنافقون : التغابن : الطلاق:التحريم: النصر : هذه كلها مدنية باقي القرآن مكي •

ولما نزل عليه السلام بقباء نزل على شيخبني عمرو كلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة لانه كان عزبا ونزل أبو بكر بالسنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد منبني الحارث من الخزرج •

مسجد قباء

وأقام رسول الله بقباء ليالي أسس فيها مسجد قباء الذي وصفهالله

بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الانصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون • وكانت المساجد على عهد رسول الله في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بناة المساجد في القرون الاخيرة ، لان الرسول وأصحابه لم يكن جل همهم الا منصرفا لتزين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان فكان سور المسجد يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقي بها حر الشمس •

الوصول إلى المدينة

ثم تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة فسار وهو محاط بالناس مشاة وركبانا وهم يتجاذبون زمام ناقته يرجو كل واحد أن يكون ضيفه ، وكانت الولائد والنساء والصبيات يترنمون بهذه الابيات :

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالامر المطاع

أول جمعة

وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فتنزل وصلاها وهذه أول جمعة له عليه السلام وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فقدموا لانفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ، ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى

شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزي الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا وكلما مروا على دار من دور الانصار يتضرع اليه أهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة فيقول دعوها فانها مأمورة ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الانصاري واسمه خالد بن زيد وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام ههنا المنزل ان شاء الله (رب انزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده وخرجت ولائد بني النجار يقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام أتحببنني ؟ فقلن نعم • فقال الله يعلم أن قلبي يحبكن • واختار عليه السلام النزول في الدور الاسفل من دار أبي أيوب ليكون أريح لزائريه ، ولكن لم يرض رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن أن يصيبه من التراب الذي يحدثه وطء الاقدام أو الماء الذي يهراق ، فقد اتفق أن كسرت من زوجته جرة ماء بالليل فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لهما غيرها يمسحان الماء خوفا على رسول الله ، ولذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العلو وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سراة الانصار كسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وأم زيد ابن ثابت فما من ليلة الا وعلى بابه الثلاث أو الاربع من جفان الثريد •

أما المهاجرون فقد تنازعهم أهل المدينة ثم رضوا أن يقترعوا عليهم فمن اصابته القرعة آوى اليه مهاجريا •

أخوة الاسلام

ومن يتأمل الى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر بل بفضل من الله ورحمته يفهم كيف انتصر هؤلاء الاقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدد ،

وكان الانصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى في سورة الحشر « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » • وهذا أعلى درجات الاخوة وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لاخوانهم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمكن بينهم الاخاء آخى بين المهاجرين والانصار فكان كل أنصاري ونزيله أخوين في الله • ومن العبث أن تكلف القلم أن يوضح للقارىء أن هذه الاخوة كانت أرقى بكثير من الاخوة العصبية بل نكل ذلك للاحساس الاسلامي فانه أفصح منطقا من القلم • وعلى الاجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئا واحدا في أجسام متفرقة وعسى الله أن يوفق مسلمي عصرنا الى هذا الاخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون وكان هذا الاخاء على المواساة والحق وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الارحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين (تآخيا في الله أخوين أخوين) ودام هذا الميراث الى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » .

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله وأرسل معهما عبدالله بن أريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه عليه السلام وسودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة ، أما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع وخرج مع الجمع عبدالله بن أبي بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة أخته وأسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبدالله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة •

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقا للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيرا منهم الحمى وكان رسول الله يعودهم فلما شكوا اليه الامر قال اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة وأشد وبارك لنا في مدها وفي صاعها وانقل وباءها الى الجحفة فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام •

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضا من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم ،الوليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص ،فكان عليه السلام يدعو لهم في صلاته ، وهذا أصل القنوت وقد حصل في أوقات مختلفة ومحال في الصلاة مختلفة ، فكان في وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله ، فروى كل صحابي ما رآه وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت •

السنة الاولى ـــ بناء المسجد

ثم أخذ عليه الصلاة والسلام في بناء مسجد حيث بركت ناقتـــه ، فجعل سقفه من الجريد وعمده من جذوع النخل • وكان علوه لا يزيـــد عن قامة الرجل الا قليلا • وجعل رسول الله يعمل بنفسه مـــع العمال وهو يقول :

اللهم لا خير الا خير الآخرة   فارحم الانصار والمهاجـــرة

وفرشه بالحصباء وبنى بجانبه حجرتان احداهما لسودة بنت زمعة والاخرى لعائشة ولم يكن له غيرهما اذ ذاك فكان كلما تزوج بواحـــدة بنى لها حجرة ملاصقة للمسجد •

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائما متذكرين عظمـــة العلي الاعلى فيبتغون أوامره ويجتنبون نواهيه ، ولذلك قـــال في محكم كتابه في سورة العنكبوت «إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ » . وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضا فـــي شؤونهم واحتياجاتهم ويقووا روابط الالفة والاتحاد بينهم ، ومتى حان وقت الصلاة فـــلا بد من عمل ينبه الغافل ويذكـــر الساهي حتى يكون الاجتماع عاما ، فأتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيمـــا يفعل لذلك فقال بعضهم : ترفع راية اذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك لانها لا تفيد النائم ولا الغافل ، وقال الآخرون :تشعل نارا على مرتفع من الهضاب ، فلم يقبل أيضا ، وأشار آخرون ببوق وهو

ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله لانه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما ،وأشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضا ، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض النـاس اذا حانت الصلاة وينادي بها ، فقبل هذا الرأي وكان أحد المنادين عبدالله ابن زيد الانصاري ، فبينما هو بين النائم واليقظان اذ عرض له شخص وقال : ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال بلى ،فقال له: قل الله أكبر الله أكبر مرتين وتشهد مرتين ثم قل حي على الصلاة مرتين حي على الفلاح مرتين ثم كبر ربك مرتين ثم قل لا اله الا الله ، فلـما استيقظ توجه الى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر رؤياه ،فقال: انها لرؤيا حق ثم قال له لقن ذلك بلالا فانه أندى صوتا منك وبينما بلال يؤذن اذ جاء عمر يجر رداءه فقال والله لقد رأيت مثلـه يا رسول الله وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبدالله بن أم مكتوم وكان بـلال يقول في أذان الصبح بعد حي على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتـين وأقره الرسول على ذلك وكان عليه السلام يأمر في فجر رمضان بآذانـين أولهما يوقظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور والثاني للصلاة . أمـا الاذان للجمعة فكان أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء رواه البخاري ولما تولى هشام بن عبدالملك أخذ الاذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ثم نقل الاذان الـذي كان على المنار حين صعود الامام على المنبر في العهد الاول بين يديه .

فعلم بذلك أن الاذان في المسجد بين يدي الخطيب بدعة أحدثهـا هشام بن عبدالملك ولا معنى لهذا الاذان لانه هو نداء الى الصلاة ومن هو في المسجد لا معنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النـداء

اذا كان النداء في المسجد ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في المدخل.

قال الحافظ في فتح الباري : وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء اليها بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى .

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة أنه كان اذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فاذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع .

أما الاقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد فقد اختلف الرواة في نصها فرواها محمد بن ادريس الشافعي مفردة الا لفظ قد قامت الصلاة فمثنى ورواها مالك بن أنس مفردة كلها ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها .

معاداة يهود المدينة للنبي

(هذا) وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق . وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه . فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة في ولد اسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغيا مع أنهم يرون أن رسول الله محمدا لم يأت الا مصدقا لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين مبينا ما أفسده التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه على

الاسلام نسخ الاحكام وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج اليه الانسان أكثر منهم فانه ميال بطبعه للترقي . والرسول عليه السلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الالهية فكانت الحكمة داعية لان يكون التشريع لهم على التدريج ،لانه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا الى آخر الاوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الاسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم . المختلفة أهواؤهم . الذين كانوا منغمسين في كثير من الاضاليل فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر شيئا فشيئا حتى روضت عقولهم وهذبت نفوسهم،وكانت الاحكام لا ينزلها الله عليه الا عقب الحوادث التي تقتضيها ليكون التأثير في النفوس أشد ، ولكن اليهود أرادوا غل يد القدرة على أن تفعل الا ما يشتهون . وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال في سورة البقرة : « قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالصةً مِنْ دونِ النّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ » ثم حتم جل ذكره عدم اجابتهم بقوله « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ابَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ وَاللهُ عَليمٌ بِالظّالِمينَ » فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الامين ، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقا باللسان . وقد تبين الهدى لاحد رؤساء بني قينقاع وهو عبدالله بن سلام فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم اسلامه فبئسما اشتروا لانفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم في اطفاء نوره « وَيَأْبَى اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ » .

وكان يشايع اليهود في معاكسة رسول الله قوم من أهل المدينة مردوا على النفاق آمنوا علنا وأخفوا الكفر في نفوسهم وكان يرأسهم عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجي الذي كان مرشحا لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لان أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مرارا والاساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما . فكثيرا ما كان يتغيب عن المدينة ويولي عليها بعض الانصار ولكن لم يعهد أنه ولى رجلا ممن عهد عليه النفاق لانه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملا فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين .

هذا وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فئتان : اليهود ، والمنافقون ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم وعقد مع أولئك عهدا مقتضاه ترك الحرب والاذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحدا وان دهمه بالمدينة عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم .

مشروعية القتال

قد علم مما تقدم أن رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحدا على الدخول في الدين بل كان الامر قاصرا على التبشير والانذار ، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ، ومن ذلك قوله في سورة الأحقاف « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » وكان كثيراً ما يقص الله عليه أنباء اخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده . ولما ازداد طغيان أهل

مكة الجأوه الى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله فكانوا هم البادئون بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ » ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ اخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ اَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

الى هنا لم يكن الامر الا لقتال قريش ، ولكن لما تحالف على مثاله غيرهم معهم ، أمره الله بقتال المشركين كافة فقال تعالى : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » . فصار القتال مأموراً به للوثنيين من العرب كافة . وقد نص رسول الله على ذلك بقوله :

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) . ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث انهم ساعدوا المشركين في حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون

جانبهم وصار قتال رسول الله للاعداء على هذه المبادىء الآتية :

١ ــ اعتبار مشركي قريش محاربين لانهم بدأوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين •

٢ ــ متى رئي من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل •

٣ ــ متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشا قوتلت حتى تدين بالاسلام •

٤ ــ كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يدعن بالاسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر •

٥ ــ كل من أسلم فقد عصم دمه وماله الا بحقه والاسلام يقطع ما قبله •

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيرا من الآي تحريضا على الاقدام في قتال الاعداء وتبعيدا عن الفرار من الزحف فقال في الموضوع الاول في سورة النساء « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلَ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً • » وقال في الموضوع الثاني في سور الأنفال : « يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ • وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ • »

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها الى الشام لتبيع وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيرا وكان يسير معهــا لحراستها كثير من أشراف القوم وسراتهم ولابد وصولهم الى الشـــام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآئبة ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بد أن يكون ، لان قريشا لم تكن لتسكت عمن سفه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصا وهــم قدوة العرب في الدين .

سرية[1]

ففي شهر رمضان أرسل عمه حمزة بن عبدالمطلب في ثلاثين رجــلا من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليعترض عيرا لقريش آئبة من الشام فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين، فلما التقى الجمعان حجز الفريقين مجدي بن عمرو الجهني عن القتـــال وكان فعله هذا من الحكمة لان التفاوت بين الفريقين في العدد كان كبيرا :

وفي شوال أرسل رسول الله . عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين راكبا من المهاجرين ليعترض عيرا لقريش فيها مائتا رجل فوافــوا العير ببطن رابغ[2] فكان بينهم الرمي بالنبل ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهــم المسلمون وفر من المشركين الـــى

---

(١) السرية قطعة من الجيش ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله والتى كان فيها تسمى غزوة .

(١) واد بين الحرمين قرب البحر .

المسلمين المقداد بن الاسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين •

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع أسلم قديما وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرس قبره بالماء ووضع على قبره حجرا وقال: أتعلم به قبر أخي وأدفن اليه من مات من أهلي وهذا كان القصد من وضع الاحجار على المقابر لا ما يقصده أهل العصور الاخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور ترى في عين الناظر كالاصنام ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرا ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة •

ومات من الانصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثني عشر كان رضي الله عنه نقيب بني النجار ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لان ابن أخت القوم منهم ومات أيضا البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذي كان تكلم عن القوم في العقبة الثانية • ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل ما جزعك يا عم فقال والله ما بي من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة فقال أبو سفيان لا تخف اني ضامن أن لا يظهر وفيهما أيضا مات العاصي بن وائل السهمي• وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين •

السنة الثانية ــ غزوة ودان

وفي محرم السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من

المدينة بعد أن أستخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيرا لقريش فسار حتى بلغ ودان [1] وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حربا لان العير كانت قد سبقته ، وفي هــذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهــم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم نصرة المسلمين اذا دعوا ثم رجع الى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيرا لقريش آئبة من الشام فيها أمية بــن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار اليها في مائتين من المهاجرين وذلــك في ربيع الاول وكــان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص فسار حتى بلغ بواط [2] فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيدا ، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة .

غزوة العشيرة

وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعــدا الا بعث به في تلك العير وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعــه بضعــة وعشرون رجلا فخرج لها الرسول في جمادى الاولى ومعه مائةوخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الاسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائرا حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد مضت،وحالف عليه السلام في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام الى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع .

---

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الابواء ستة أميال .
(٢) جبال جهينة على ابراد من المدينة جهة ينبع .

غزوة بدر الاولى

وبعد رجوع النبي (صلعم) بقليل جاءكرز بن جابر الفهري وأغار على ماشية المدينة وهرب فخرج الرسول يتعقبه فسار حتى بلغ وادي سفوان وفاته كرز فلم يلق حربا ، وتسمى هذه الغزوة بدرا الاولى .

سرية

وفي رجب من هذه السنة أرسل رسول الله سرية عدتها ثمانيةرجال يرأسها عبدالله بن جحش وأعطاه كتابا مختوما لا يفضه الا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه فسار عبدالله يومين ثم فتح الكتاب فاذا فيه (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) وانما لم يخبرهم عليه السلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذرا من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الاعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش . ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة ، ثم سار عبدالله رضي الله عنه وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبيوقاص وعتبة ابن غزوان لانهما أصلا بعيرهما الذي كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم فحملوا عليهم في آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير ، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ، ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم ، فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الاشهر الحرم وعابتهم قريش واليهودبذلك،

عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام : ما أمرتكم بقتال في الاشهر الحرم فندموا ، فأنزل الله في سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » . فسرى عنهم . وقد طلب المشركين فداء أسيريهما فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية في الاسيرين ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه مع المسلمين ، وأما عثمان فلحق بمكة كافرا .

تحويل القبلة

وفي هذه السنة أمر ان ان يتوجه في صلاته الى الكعبة وكانت القبلة قبلها بيت المقدس .

وكانت هذه الحادثة سببا لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم وقد أكثر اليهود من التنديد على الاسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على المسلمين وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التي بها يتم النظام فان الانسان مجبول على حب نفسه والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركا ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين فلا بد من وازع يزعه

لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن ادراك حاجاتهم ، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش اذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات .

صدقة الفطر وزكاة المال

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة .

وفي هذا العام فرضت زكاة الاموال وهذه هي النظام الوحيدالذي به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء ، فاذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين وحال عليها الحول وجب عليك أن تؤدي ربع عشرها أي اثنين ونصفا في كل مائة وما زادفبحسابه، واذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والابل خمسا وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءا مخصوصا حدود الشارعومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الامام ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . »

غزوة بدر الكبرى

كان رسول الله لا يزال يترقب تلك التجارة التي افلتت الىالشام بعد أن خرج لها ، فلما سمع بقرب رجوعها ، ندب أصحابه اليها قائلا : هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فأجاب قوم وثقل

آخرون لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يرد حربا فانه لم يحتفل بها بل قال : من كان ظهره حاضرا فليركب معنا • ولم ينتظر من كان ظهره غائبا، فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد أن ولى على المدينة عبدالله بن أم مكتوم وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : مائتان ونيف وأربعون من الانصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون بعيرا يعتقبونها ، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري • ولما علم أبوسفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم استأجر راكبا ليأتي قريشا ويخبرهم الخبر فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعا ولم يتخلف من أشرافهم الا أبو لهب بن عبدالمطلب فانه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة • وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه اياه سعد بن معاذ حينما كان معتمرا بعد الهجرة بقليل حيث قال كما رواه البخاري : سمعت من رسول الله يقول انهم قاتلوك قال بمكة، قال لا أدري ففزع لذلك وحلف أن لا يخرج فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصدا الرجوع بعد قليل • ولكن ارادة الله فوق كل ارادة، فان منيته ساقته الى حتفه رغم أنفه • وكذلك عزم جماعة من الاشراف على القعود فعيب عليهم ذلك وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » . وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلا يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم فقال في سورة الحشر : « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . » وهكذا كان عمله في هذه الواقعة « فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ . » وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئا مما فعله المشركون ولم يكن خروجه الا للعير ، فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب ثم أرسل اثنين يتجسسان الاخبار عن العير . ولما بلغ الروحاء (١) جاءه الخبر بسير قريش لمنع عيرهم وجاءه مخبراه بأن العير ستنسل بدرا غدا أو بعد غد فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم (أيها الناس ان الله قد وعدني احدى الطائفتين أنها لكم العير أو النفير) فتبين له عليه السلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهي العير ليستعينوا بما فيها من الاموال فقد قالوا هلا ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » .
ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ . » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير ، ثم قال عليه السلام أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الانصار لان بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته الا مادام بين أظهرهم فان فيها يا رسول الله انا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت اليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فقال سعد بن معاذ سيد الاوس كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله فو الذي بعثك بالحق لو

(١) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا جنوب المدينة الغربي .

استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معــك ومــا نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله ، فأشرق وجهه عليه السلام وسر بذلك وقال كما في رواية البخاري (أبشروا والله لكأني أنظر الى مصارع القوم) فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بد حاصلة ، وحقيقــة حصلت ، فان أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكــة وسار متبعا ساحل البحر فنجا وأرسل الى قريش يعلمهم بذلك ويشــير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل لا نرجع حتى يحضر بدرا [(١)] فنقيم فيــه ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فــلا يزالون يهابوننا أبدا . فقال الاخنس بن شريق الثقفي لبني زهرة وكان حليفا لهم : ارجعوا يا قوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا ، ولم يشهــد بدرا زهري ولا عدوي ، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فنزلوا عدوته القصوى [(٢)] عن المدينة أرض سهلة لينة أما جيش المسلمين فانــه لما قارب بدرا أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب والزبــير بن العوام ليعرفا الاخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلاما لبني العاص السهميين فأتيا بهما والرسول عليه السلا مقائم يصلي ثم سألاهمــا عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لانهما

ظنا أن الغلامين لابي سفيان فقال الغلامان نحن لابي سفيان فتركاهمــا . ولما أتم الرسول عليه السلام صلاته قال اذا صــدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما ؟! صدقا . والله انهما لقريش . ثم قال لهما :أخبراني

---

(١) محل بين مكة والمدينة وهو الى المدينة اقرب في الجنوب الغربى منها على الطريق السلطانى . وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية ايام .

(٢) عدوة الوادى : شاطئه .

عن قريش ؟ قالا : هم وراء هذا الكثيب ، فقال لهما : كم هم ؟ فقالا : لا ندري . قال كم ينحرون كل يوم . قالا : يوما تسعا ويوما عشرا ؟قال القوم ما بين التسعمائة والالف ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عددا عظيما فقال عليه السلام لاصحابه هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها [1] ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيدا عن الماء في أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشا بعضهم جنب وبعضهم محدث فحدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم فانه قال لهم : ما ينتظر المشركون منكم الا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاءوا .

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادي واغتسلوا وتوضأوا وملأوا الاسقية ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فانه وحل الارض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال . ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال : « وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ . » وقد أرى الله رسوله في منامه الاعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضي الله أمرا كان مفعولا . قال تعالى في سورة الانفال : « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ اذِ الْتَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُمْ

(١) قطع كبدها .

قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . » ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الانصاري وكان مشهورا بجودة الرأي يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال يا رسول الله : ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فاني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ما عداه من الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون . فقال الرسول عليه السلام : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغورت لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه . ثم قال له سعد ابن معاذ سيد الاوس « يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام ، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولا أطوع لك منهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك انما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، » فقال عليه السلام : أو يقضي الله خيرا من ذلك . ثم بني للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به) . وفي هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فان عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبدالله

ابن جحش ويحمل ما أصيب من عيره ودعا الناس الى ذلك ، فلما بلغ أبا جهل وسمه بالجبن وقال : لا نرجع حتى نرى ما يكون بيننا وبين محمد ، وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الاسود بن عبدالاسد المخزومي وقال : أعاهد الله لاشربن من حوضهم أو لاهدمنه أو لاموتن دونه ، فخرج اليه حمزة بن عبدالمطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فاتبعه حمزة فقتله • ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال (وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم) • ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج اليهم ثلاثة من الانصار فقالوا لا حاجة لنا بكم انما نريد أكفاءنا من بني عمنا فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب للاول وحمزة بنعبدالمطلب للثاني وعلي بن أبي طالب للثالث • فأما حمزة وعلي فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه وحمل عبيدة بين الصفوف جريحا يسيل مخ ساقه وأضجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة ، فقال : وددت والله أن أبا طالب كان حيا ليعلم أننا أحق منه بقوله :

ونسلمه حتى نصرع حوله   ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب في يده ، فمر بسواد بن غزية حليف بنيالنجار وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب في بطنه وقال : استقم يا سواد ، فقال أوجعتني

يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعــدل فأقدني مــن نفسك •فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه وقال استقد يا سواد ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال عليه السلام : ما حملك على ذلك ؟ فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يسس جلدي جلدك ، فدعا لــه بخير ثم ابتدأ عليه السلام يوصي الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وان اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذلك الوقت كما جاء في صحيح البخاري(اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد) فقال أبو بكر : حسبك فان الله سينجز لك وعدك ، فخرج عليه السلام من العريش وهو يقــول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » • ثم قال عليه السلام يحرض الجيش (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبــا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلا فله سلبه) فقال عمير ابن الحمام وبيده تمرات يأكلها بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتــل واشتد القتال وحمي الوطيس وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهــم ولتطمئن به قلوبهم فلم تكن الا ساعــة حتى هزم الجمع وولوا الدبــر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أول القتال وأبو البختري ابن هشام والجراح والد أبي عبيدة قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر ، وقتل أمية بن خلف وابنه علي اشترك في قتلهما جماعــة من الانصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة • ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان وأبو جهــل

ابن هشام أثخنه فتيان صغيران من الانصار لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الايذاء لرسول الله وأجهز عليه عبدالله بن مسعود وقتل نوفل بن خويلد قتله علي بن ابي طالب وقتل عبيدة والعاصي والد أبي أحيحة سعيد بن العاص بن آمية وقتل كثيرون غيرهم ، أما الاسرى فكانوا سبعين أيضا قتل منهم عليه السلام وهو راجع عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين • وكانت هذه الواقعة في ١٧ رمضان وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة •

وقد أمر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه السلام أخبر بها قبل حصول الموقعة الى قليب بدر لانه عليه السلام كان من سننه في مغازيه اذا مر بجيفة انسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمنا أو كافرا • ولما ألقى عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين الى الاسلام توجه وجه ابنه ففطن الرسول عليه السلام لذلك فقال : لعلك دخلك من شأن أبيك شيء ! فقال : لا والله ولكني كنت أعرف من آبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه الله للاسلام فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك ، فدعا له الرسول عليه السلام بخير ثم أمر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذي رمي فيه المشركون فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا • فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، وتقول عائشة رضي الله عنها : انما قال انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ثم قرأت انك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور ، تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار (رواه البخارى) ثم أرسل

عليه السلام المبشرين فأرسل عبدالله بن أبي رواحـة لاهل العالية (١) وأرسل زيد بن حارثـة لاهل السافلة راكبا على ناقة رسول الله وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول «صلى الله عليه وسلم» والمسلمين عادة الاعداء في اذاعة الضراء يقصدون بذلـك فتنة المسلمين فجاء أولئك المبشرون بما سر أهل المدينة وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان • ثم قفل رسول الله راجعا وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم ، فالشبان يقولون كنـا ردءا لكم فنشاركم • ولما كان هذا الاختلاف مما يـدعو الى الضعف ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين الى تشتت الشمل أنزل الله حسما لهذا الخلاف أول سورة الأنفال « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فسطع على أفئدتهم نور القرآن فتألفت بعد أن كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس وأدخل في الاسهام بعض من لم يحضر لامر كلف بـه وهم : أبو لبابة الانصاري لانه كان مخلفا على أهل المدينة والحارث بن حاطب لان الرسول عليه السلام خلفه على بن عمرو بن عوف ليحقق أمرا بلغه والحارث بن الصمة وأخوات بن جبير لانهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيـد لانهما أرسلا يتجسسان الاخبار فلم يرجعا الا بعد انتهاء الحرب وعثمان بن عفان لان الرسـول عليه السلام خلفه على ابنته رقية يمرضها وعاصم بن عدي لانه خلفه على أهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة ابن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم الذي جرح في المبارزة الاولى فانـه

(١) قرى بظاهر المدينة وهي العوالي •

رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء • ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالاسرى فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تسكنني من فلان لقريب له فأضرب عنقه ، وتسكن حمزة من أخيه العباس وعليا من أخيه عقيل • وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم • ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله ابن رواحة ، وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا فقال عليه السلام : ان الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال «فمن اتبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم » وان مثلك ياعمر مثل نوح قال « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » ورأى عليه السلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين لان الوجهة واحدة وهي اعزاز الدين وخذلان المشركين ، ثم قال لاصحابه أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من

أسراكم الا بفداء ، وقد بلغ قريشا ما عزم عليه الرسول في أمر الاسرى فناحت على القتلى شهرا ثم أشير عليهم من كبارهم أن لا يفعلوا كيلا يبلغ محمدا وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا على أن لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم ، وتواصوا فيما بينهم أن لا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه •

الفداء

فلم يلتفت الى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي وكان أبوه من الاسرى ، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعثت قريش في فداء آسراها وكان أربعة آلاف الى الف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه (ومن) الاسرى عمرو بن أبي سفيان ولما طلب من أبيه فداؤه أبى وقال : والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم • فبينما أبو سفيان بمكة اذ وجد سعد ابن النعمان الانصاري معتمرا فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو فمضى قوم سعد الى رسول الله وأخبروه فأعطاهم عمرا ففكوا به سعدا (ومن) الاسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول وكان عليه السلام قد أثنى عليه خيرا في مصاهرته فانه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول فامتنع وقال : والله لا أفارق صاحبتي وأحب أن لي بها امرأة من قريش ، ولما أسر أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها • فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رق لها رقة شديدة وقال لاصحابه ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا ، فرضي الاصحاب بذلك فأطلقه عليه السلام بشرط

ان يترك زينب تهاجر الى المدينة . فلما وصل الى مكة أمرها باللحاق بأبيها وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فاحتملوها . (هذا) ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح رد عليه امرأته بالنكاح الاول (ومن) الاسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل يدلع [1] لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا ، فقال عليه السلام (لا أمثل فيمثل الله بي وان كنت نبيا وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه) وقدم بفدائه مكرز بن حفص ، ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هذا وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل فانه لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الاعراب فقام سهيل هذا خطيبا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ألم تعلموا أن الله قال « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » وقال « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » ثم قال : والله وإني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم فانه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وان الله ناصر من نصره ومقو دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه ، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم . (ومن) الاسرى الوليد بن الوليد افتداه أخواه خالد وهشام فلما افتدي ورجع الى مكة أسلم فقيل له :

---

(١) يخرج .

هلا أسلمت قبل الفداء ؟ فقال خفت أن يعدوا اسلامي خوفا • ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففر الى النبي في عمرة القضاء • (ومن) الاسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية في تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن ادريس الشافعي • (ومنهم) وهب بن عمير الجمحي كان أبوه عمير شيطانا من شياطين قريش كثير الايذاء لرسول الله ، جلس يوما بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير : والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي كنت آتي محمدا فأقتله فان ابني أسير في أيديهم ، فقال صفوان : دينك علي وعيالك مع عيالي فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر مع نفر من المسلمين اذ نظر الى عمير متوشحا سيفه فقال : هذا الكلب عدو الله ما جاء الا بشر ، ثم قال للنبي عليه السلام : هذا عدو الله قد جاء متوشحا سيفه ، فقال أدخله علي ، فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله • فلما رآه عليه السلام قال: أطلقه يا عمر ، أدن يا عمير فدنا وقال : انعموا صباحا ، فقال عليه السلام قد أبدلنا الله تحية خيرا من تحيتك وهي السلام ، ثم قال ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الاسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف ؟ قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال عليه السلام : كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقلتما كيت وكيت فأسلم عمير وقال كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره الا أنا وصفوان !! فقال عليه السلام : فقهوا أخاكم في دينه وأقرؤوه القرآن وأطلقوا أسيره • فعاد عمير الى مكة وأظهر اسلامه (ومن) الاسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير مر به أخوه فقال للذي أسره : شد يدك به ، فان أمه ذات متاع لعلها تفديه • فقال له يا أخي هذه وصايتك بي ! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة

آلاف درهم (ومن) الاسرى العباس بن عبدالمطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد خرج لهذه الحرب مكرها ولما وقع في الاسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب، فقال : علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج ؟ فقال عليه السلام : لقد كنت في الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه ، ثم قال للرسول : لقد تركتني فقير قريش ما بقيت ، قال كيف وقد تركت لام الفضل أموالا وقلت لها ان مت فقد تركتك غنية ! فقال العباس : والله ما اطلع على ذلك احد . وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فانه عليه السلام لم يعف عمه مع علمه بأنه انما خرج مكرها وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » . (ومن) الأسرى أبو عزة الجمحي الشاعر كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال : يا محمد إني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن ، فمن عليه فضلاً منه .

العتاب في الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

نهى سبحانه عن اتخاذ الاسرى قبل الاثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله أن لا يعاقب

مجتهدا على اجتهاده ما دام المقصد خيرا لكان العذاب ، ثم أباح لهم الاكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح . وهذا من أقوى الادلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به لانه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل بناء على رأي كثير من الصحابة . وقد وعد الله الاسرى الذين يعلم في قلوبهم خيرا بأن يؤتيهم خيرا مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الاسلام وقوى أهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائدة ولذلك قال الله ممتنا على عباده بهذا النصر « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر انما هو من عند الله فهي أعظم غزوات الاسلام اذ بها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الاعداء الالداء للاسلام ودخل الرعب في قلوب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال .

غزوة قينقاع

لما تمّ لرسول الله هذا النصر الباهر أظهر بنو قينقاع من اليهود استخفافهم به ونبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه ، فحذرهم رسول الله عاقبة البغي فقالوا له : « يا محمد، لا يغرنك ما لاقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس » فانزل الله قوله من سورة آل عمران : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ

وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ » .

وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبدالله بن أبي وقال اني رجل أخشى الدوائر فأنزل الله تعليماً للمسلمين في سورة المائدة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ » . وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام في نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه حمزة وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري فحاصرهم خمس عشرة ليلة .

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه السلام ووكل بجلائهم عبادة ابن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا الى أذرعات (١) ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا وخمس عليه السلام أموالهم وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل ، ولما سئل

---

(١) بلد بالشام .

عن ذلك قال : انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والاسلام هكذا وشبك بين أصابعه •

غزوة السويق

سميت هذه الغزوة كذلك لان المشركين وهم يهربون ألقوا ما كان معهم من جرب السويق ليخفوا في الهرب • وسبب هذه الغزوة أنا أبا سفيان ابن حرب احد قادة قريش لم يحضر بدرا ومات فيها ابنه فاستشاط من ذلك غيظا وأراد الاسراع بأخذ الثأر فجمع مائتي رجل وسار قاصدا المدينة فحرق بعض نخلها وقتل رجلا من الانصار ، فخرج اليه رسول الله في مائتي رجل فهرب منه •

صلاة العيد

وفي هذا العام سن الله للعالم الاسلامي سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الأخاء ويقووا عروة الدين الوثقى ، وهي الاجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الاضحى • وكان عليه السلام يجمع المسلمين في صعيد واحد ويصلي بهم ركعتين تضرعا الى الله أن لا يفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم ثم يخطبهم حاضا لهم على الائتلاف ، ومذكرا لهم ما يجب عليهم لأنفسهم ، ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضا وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاما لجميع المسلمين • فبعد الفطر زكاته وبعد الأضحى تضحيته •

★★★

زواج علي بفاطمة عليها السلام

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب وعمره احدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله بنو الحسن والحسين وزينب (وفيها) دخل عليه السلام بعائشة بنت أبي بكر وسنها اذ ذاك تسع سنوات •

السنة الثالثة

يا الله يقضي على الشقي بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر ، فيتخذ الغدر رداء ، والخيانة شعارا ، فلا ينجح معه الا اراحة العالم من شره • هذا كعب بن الأشرف اليهودي عظيم بني النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برقع الحياء وصار يحرض قريشا على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد في اثارة الشحناء بين المسلمين ، فكلما جبر عليه السلام كسرا هاضه هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه •

قتل كعب بن الأشرف

كعب هذا شاعر جاهلي ، كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية• وكان سيدا في أخواله ، يقيم في حصن له قريب من المدينة يبيع فيه التمر والطعام ، أدرك الاسلام ولم يسلم ، واكثر من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتحريض القبائل عليهم وايذائهم والتشبيب بنسائهم • وخرج الى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش فيها وحض على الاخذ بثأرهم ، وعاد الى المدينة • فقال رسول الله : من لكعب بن الاشرف ، فأنه آذى الله ورسوله ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به ، وآذن لي ان أقول شيئا اتمكن به ، فأذن له ، فخرج ومعه أربعة حتى أتى كعبا فاغتاب رسول الله أمامه ثم طلب أن يسلفه ، فأجابه الى ما طلب وشرط ان يكون

سلاحا ، فانصرفوا على أن يقابلوه ليلا ، فأتوه فطرقوا الباب فأراد ان ينزل فقالت له امرأته : أين تخرج الساعة وانك امرؤ تحارب ؟ فقال انما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ان الكريم لو دعي الى طعنة بليل لأجاب • ثم قال محمد لمن معه : اذا جاءني فاني آخذ بشعره فأشمه ، فاذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه • فنزل اليهم كعب متوشحا سيفه وهو ينفح منه ريح المسك ، فقال محمد : ما رأيت كاليوم ريحا أطيب • أتأذن لي أن أشم رأسك • قال نعم • فشمه ، فلما استمكن منه ، قال : دونكم فاقتلوه ففعلوا • وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم • ثم أتوا النبي فأخبروه • وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام وكان عليه السلام اذا رأى من رئيس غدرا ومقاصدة سوء ومحبة لاثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره • وقد فعل كذلك مع أبي عفك اليهودي وكان مثل كعب في الشر •

غزوة غطفان

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دعثور ، يريدون الغارة على المدينة • فأراد عليه السلام أن يغل أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء • فخرج اليهم من المدينة في أربعمائة وخمسين رجلا لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وخلف على المدينة عثمان بن عفان • ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا الى رؤوس الجبال ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمر ، فعسكروا به • وحدث أنه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون ، فأبصره دعثور فأقبل اليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال : من يمنعك مني يا محمد ؟ فقال : الله • فأدركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده ، فتناوله عليه السلام وقال

لدعثور : من يمنعك مني ؟• قال لا أحد • فعفا عنه ، فأسلم الرجل ودعا قومه للاسلام ، وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه الى محبته وجمع الناس له : « ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » •

غزوة بحران

بلغه عليه السلام أن جمعا من بني سليم يرون الغارة على المدينة فسار اليهم في ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الاولى وخلف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل الى بحران تفرقوا ولم يلق كيدا فرجع•

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبر عنها لان بها حياتهم ، أرسلوا عيرا الى الشام من طريق العراق ، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى • فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك في جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد ، فأخذت العير وما فيها وهرب الرجال • وقد خمس الرسول عليه السلام هذه حينما وصلت له •

★★★

غزوة أحد

لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع المنهزمون منهم الى مكة ، وعاد أبو سفيان بعيره ، مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوتهم يوم بدر ، فكلموا ابا سفيان ومن كانت لهم في تلك العير تجارة ، فقالوا : إن محمداً قد وترنا وقتل خيارنا وانا رضينا أن تترك ربح أموالنا فيها استعدادا لحرب محمد وأصحابه وقد رضي بذلك كل من له فيها نصيب ، وكان ربحها نحوا من خمسين ألف دينار ، فجمعوا لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي ، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عدد ممن هم مثله • وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة • وقال صفوان بن أمية لابي عزة « الشاعر الذي من الرسول عليه ببدر وأطلقه من غير فداء » : انك رجل شاعر فأعنا بلسانك • فقال : اني عاهدت محمدا أن لا أعين عليه ، وأخاف ان وقعت في يده مرة ثانية أن لا انجو • فلم يزل به صفوان حتى أطاعة وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين • ودعا جبير ابن مطعم غلاما حبشيا له اسمه وحشي وكان راميا قلما يخطىء فقال له : اخرج مع الناس فان أنت قتلت حمزة بعمي طعيمة فأنت حر •

ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة • أما رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به اليه عمه العباس بن عبد المطلب ، الذي لم يخرج

مع المشركين في هذه الحرب محتجا بما أصابه يوم بـدر • ولمـا وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر ، وقال: ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضا عبدالله بن أبي • أما الأحداث وخصوصا من لم يشهد بدرا منهم فأشاروا عليه بالخروج ، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب • وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لانهم الأكثرون عددا والأقوون جلدا فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال حضهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ما صبرتم) ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين [١] وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره ولما رأى ذوو الرأي من الانصار أن الاحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم ، وقالوا : ردوا الامر لرسول الله • فلما خرج عليه السلام قالوا يا رسول الله تتبع رأيك ، فقال : ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ثم عقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير ، وخرج من المدينة بألف رجل • فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة ، فسأل عنها ، فقيـل : هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي من اليهود • فقال انا لا نستعين بكافر على مشرك • وأمر بردهم لانه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى في الخيانة • ثم استعرض الجيش فرد من استصغر ، وكان فيمن رد رافع بن خديج وسمرة بن جندب ثم أجاز رافعا لما قيل له انه رام ، فبكى سمرة وقال لزوج أمه : أجاز رسول الله رافعا وردني مع أني أصرعه ، فبلغ رسول الله

---

(١) أي لبس درعا فوق درع .

الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه • ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس • وفي السحر سار الجيش حتى اذا كان بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة رجع عبدالله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه وقال : عصاني وأطاع الولدان • فعلام نقتل أنفسنا • فتبعهم عبدالله بن عمرو والد جابر وقال : يا قوم ، أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم « قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم » فقال له : أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه • ولما فعل عبدالله بن أبي ذلك ، همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله • وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقول نتركهم فأنزل الله في سورة النساء . « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً » •

ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد [1] وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية ، فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلا يرأسهم عبدالله ابن جبير الأنصاري فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال : ولا تبرحوا ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا » • ثم عدل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين • وكان فيما

---

(١) جبل شمالي المدينة الشرقي .

قال : « ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وان أبطأ عنها ، فاتقوا ربكم واحملوا في طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى له سائر جسده » •

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة ، فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله ، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله علي . فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة ، فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد ابن أبي وقاص بسهم قضى عليه ، فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة وكلهم يقتلون ، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن ابن أبي بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له ، فقال عليه السلام : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون •

ولما التقت الصفوف وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجا لعواطف الرجال ، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول : (اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل) • وفي هذه الوقعة قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء ، غافله وحشي وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطيء ثنايا بطنه •

وبعدها اشتد الامر على المشركين فولوا الأدبار ونساءهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب • فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا : ما لنا في الوقوف

من حاجة ؛ ونسوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون • أما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منهم ، فلما رأى خالد بن الوليد خلو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم ، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضا •

ورفعت احدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله ، وكان من المشركين رجل يقال له « ابن قمئة » قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء وأشاع أن محمدا قد قتل ، فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم : علام نقاتل اذا كان محمدا قد قتل ؟ فارجعوا الى قومكم يؤمنوكم ، وقال جماعة : اذا كان محمد قد قتل فقاتلوا عن دينكم •

وكان من نتيجة هذا الفشل ان انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة وخارجة بن زيد ورفاعة بن المعلى وعثمان بن عفان وتوجهوا الى المدينة ، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث • وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة منهم أبو طلحة الذي استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته ، وكان راميا شديد الرمي فنثر كنانته بين يدي رسول الله وصار يقول : وجهي لوجهك فداء ، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه السلام : انثرها لأبي طلحة ، وكان ينظر الى القوم ليرى ماذا يفعلون فيقول له أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ! نحري دون نحرك •

وممن ثبت مع رسول الله سعد بن أبي وقاص فكان عليه السلام يقول له : أرم سعد ! فداك أبي وأمي • ومنهم سهل بن حنيف بن وهب

الانصاري الاوسي ، وكان من مشاهير الرماة ، نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس • ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة الخزرجي البياضي الانصاري الذي وقف على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار النبل يقع على ظهره فأصيب بجراحات كثيرة • وكان زيادة بن الحارث يقاتل عن الرسول حتى أصابت الجراح مقاتله ، فأمر به فأدني منه ووسده قدمه حتى مات •

وقد أصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات ، فقد أقبل أبي بن خلف يريد قتله ، فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال : خلوا طريقه ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع ؛ ولم يقتل رسول الله غيره لا في هذه الغزوة ولا في غيرها • وكان عمرو بن صيفي بن مالك الاوسي المعروف بأبي عامر الراهب، قد حفر حفرا وغطاها ليتردى فيها المسلمون ، فوقع رسول الله في واحدة منها فأغمي عليه وخدشت ركبتاه ، فأخذ علي بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله — وهما ممن ثبت — حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته ، فتبعه حاطب بن أبي بلتعة ، وكان من أشد الرماة ، فقتله ، وشج وجهه عليه السلام عبدالله بن شهاب الزهري ، وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه ، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما ، فكسرت في ذلك ثنيتاه ، وقال حينئذ عليه السلام : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ؟ فأنزل الله في سورة آل عمران « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » .

وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك

ابن عمرو الانصاري السلمي فنادى : يا معشر المسلمين ابشروا ، فأشار اليه الرسول أن اصمت • ثم سار بين فارس الاسلام سعد بن أبي وقاص وسعد ابن عبادة الخزرجي ، أحدالامراء الاشراف في الجاهلية والاسلام ، يريد الشعب ومعه جمع منهم : أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث ابن الصمة •

وأقبل عليه اذ ذاك عثمان بن عبدالله بن المغيرة يقول : أين محمد ؟ لا نجوت ان نجا ، فعثر به فرسه ووقع في حفرة ، فمشى اليه الحارث بن الصمة وقتله • ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان علي يسكب الماء ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم • ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه ، فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده، فنظر الى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال : « لا ينبغي لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا الا بك » ثم أرسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم •

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات ، لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفا أن يصل للرسول، فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده ، وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة • واحصي القتلى فانوا نيفا وسبعون منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار ، فكان من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ، ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجه والد جابر بن عبدالله ، فأتت زوج عمرو هند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة

فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا • (وقتل) سعد بن الربيع بن عمرو الحارثي الخزرجي ، وكان من كبار الصحابة ، وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره ، فوجده بين القتلى وبه رمق ، فقيل له : ان رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه : قل لقومي يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسول ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عندي عذر • وقتل أنس بن النضر عم أنس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه ، فانه لما سمع بقتل رسول الله قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده ، موتوا على ما مات عليه اخوانكم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه • ومثلت قريش بقتلى أحد حتى ان هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة عم الرسول وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها ، وفعلوا قريبا من ذلك باخوانه الشهداء •

ثم ان أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال ، ان الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل ، ثم قال : انكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني •

ثم ان المشركين رجعوا الى مكة ولم يعرجوا على المدينة ، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم والا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم • ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزنا شديدا ، ودفن الشهداء كلهم بأحد ، كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه ، وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب ، فكان يشق عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة • ولما رجع المسلمون الى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء وقالوا لاخوانهم « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » •

ذكر غزوة حمراء الأسد

ولما رجع رسول الله الى المدينة خشي ان يداهمهم فيها المشركون ، فأذن مؤذنه عليه السلام بالغزو قال : لا يخرج معنا الا من حضر بالامس ، فخرج ليظن المشركون به قوة ، وخرج معه جماعة جرحى يحملون نفوسهم وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهي من المدينة على سبعة أميال ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء ، ومر به معبد الخزاعي ـــ وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله بتهامة ـــ فقال يا محمد : «لقد عز علينا ما أصابك » ثم خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم فلقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة الى رسول الله ، ليستأصلوا المسلمين ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك ؟ قال : « محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله ، قد جمع معه من تخلف عنه وندموا على ما صنعوا ، وما ترجل حتى ترى نواصي الخيل » قال : فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيتهم • قال : اني أنهاك عن هذا • فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه •

ومر بأبي سفيان ركب من بني عبد القيس فقال لهم : بلغوا عني محمدا رسالة وأحمل لكم ابلكم هذه زبيبا بعكاظ • قالوا : نعم • قال : أخبروه أنا قد أجمعنا السير اليه والى أصحابه لنستأصلهم • فمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الاسد فأخبروه ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل •

ثم عاد عليه السلام الى المدينة ، وظفر في طريقه بأبي عزة عمرو بن عبيدالله الجمحي ، وكان قد تخلف عن المشركين بحمراء الاسد ، ساروا

وتركوه نائما ، وكان ابو عزة قد أسر يوم بدر فأطلقه رسول الله بغير فداء لانه شكا اليه فقرا وكثرة عيال ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه العهود أن لا يقاتله ولا يعين على قتاله ، فخرج معهم يوم أحد وحرض على المسلمين ، فلما أتى به رسول الله ، قال له : يا محمد أمنن علي قال : المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين • وأمر به فقتل •

حوادث

في هذه السنة (الثالثة للهجرة) زوج عليه السلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده (سنة ٢ هـ) ولذلك كان يسمى ذا النورين •

وفيها تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر ، واستمرت حفصة في المدينة بعد وفاة النبي الى أن توفيت بها سنة ٤٥ هـ • ولها في الصحيحين ٦٠ حديثا • وفيها تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية ، كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها واحسانها اليهم ، وكانت قبله تحت عبدالله بن جحش فقتل عنها بأحد ، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها ؛ وفيها ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما • وفيها حرمت الخمر ، وكان تحريمها بالتدريج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها ، فيصعب اذا تحريمها دفعة واحدة ، وكان ذلك التحريم تابعا لحوادث تنفر عنها ، لأن المنكر اذا أسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها كان ذلك أشد تأثيرا في النفس • فأول ما بين فيها قوله تعالى في سورة البقرة :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ومنفعة الخمر تقوية الجسم ، ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حرمت الصلاة على السكران ، فقال تعالى في سورة النساء « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » ، ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على اخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

السنة الرابعة

الاغارة على بني أسد

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان بني أسد لحربه عليه السلام فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والانصار وقال له : سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغر عليهم قبل ان تلاقي عليك جموعهم ، فخرج فأغذ السير حتى بلغ قطنا (١) فأغار عليهم فهربوا عن منازلهم ، ووجد أبو سلمة ابلا وشاء فأخذها ولم يلق حربا ، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه وكان هذا في بدء السنة الرابعة .

(١) جبل لبني أسد بناحية فيد شرقي المدينة .

سرية عبدالله بن انيس

وبلغه عليه السلام أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي المقيم بعرنة (١) قد جمع الجموع لحربه ، فانتدب عبدالله بن أنيس الجهني لقتله ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتقول حتى يتمكن ، فأذن له وقال : انتسب لخزاعة . فخرج لخمس خلون من المحرم ، ولما وصل اليه قال له سفيان : ممن الرجل ؟ قال : من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، فقال له : أجل اني لفي الجمع له ، فمشى عبدالله معه وحدثه وسفيان يستحلي حديثه ، فلما انتهى الى خبائه تفرق الناس عنه ، فجلس معه عبدالله حتى نام فقام وقتله وأخذ رأسه ثم لحق بالمدينة . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أفلح الوجه . قال : أفلح وجهك يا رسول الله ، وأخبره خبره ، فدفع اليه عصا وقال : تحضر بهذه في الجنة .

بعث الرجيع

وفي صفر أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عشرة رجال ليتجسسوا على قريش مع جماعة جاءوا يطلبون من يفقههم في الدين ، وأمر عليهم عاصم ابن ثابت الأنصاري ، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى اذا كانوا بالرجيع (٢) ، غدرت بهم تلك الجماعة ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان ابن خالد الهذلي الذي كان قتله عبدالله بن أنيس ، فنفروا اليهم فيما يقرب من مائتي رام واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم ، فلما أحس بهم

---

(١) موضع قريب من عرفات .
(٢) هي ماء لبني هذيل بين مكة وعسفان .

رجال السرية لجأوا الى جبل هناك ، فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد أن لا نقتلكم ، فنزل اليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك • ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه ، وأما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثار عند المسلمين وهناك قتلا • وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدي حين أرادوا قتله :

ولست أبالي حين أقتل مسلما | على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الالـه وان يشأ | يبارك على أوصـال شلو ممزع

سرية

ووفد على رسول الله أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من سادات بني عامر ، فدعاه عليه السلام الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال : اني أرى أمرك هذا حسنا شريفا ، ولو بعثت معي رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام : اني أخشى عليهم أهل نجد ، فقال أبو عامر : أنا لهم جار • فأرسل معه المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه كانوا يسمون القراء ، لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن ، فلما وصلوا بئر معونة أرسلوا حرام بن ملحان بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، فلما وصل اليه لم يلتفت الى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا ان يخفروا جوار ملاعب الأسنة ، فأغرى عليهم قبائل من بني سليم فأجابوه وذهبوا معه وقاتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعا لقلة عددهم • وكثرة عدوهم •

ولم ينج الا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم ، وعمرو بن أمية كان في سرح القوم . وابلغ عليه السلام خبر القراء فخطب في أصحابه، وكان فيما قال : (ان اخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وانهم قالوا ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضي عنا) وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد ، فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وأقام يدعو على الغادرين بهم شهرا في الصلاة .

غزوة بني النضير

هؤلاء من اليهود ، وقد كان بينهم وبين المسلمين عهد ، ولكنهم لم يفوا بما وعدوا . فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديار بني النضير اذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو ، فأتى رسول الله الوحي من الله بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا الى المدينة ، وترك أصحابه في مجلسهم .

ولما استبطأ رسول الله أصحابه قاموا في طلبه ، فلما انتهوا اليه ، اخبرهم بما كانت اليهود تريد به من الغدر ، ثم قال : ادعوا الي محمد ابن مسلمة ، فأتى ، فقال له : اذهب الى يهود ، فقل لهم : اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فتهيأ القوم للرحيل ، فأرسل لهم اخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم . فطمع اليهود بهذا الوعد وتأخروا عن الجــلاء .

فخرج لهم رسول الله في عسكر فاعتصموا بحصونهم ، فأحرق نخيلهم فخضعوا لأمره وأرادوا الجلاء على ان لا يكون معهم من أموالهم الا ما حملت الابل غير آلة الحرب . فأجابهم النبي الى ذلك . فخرجوا وسكن بعضهم بخيبر ولحق بعضهم باذرعات من الشام .

غزوة ذات الرقاع

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهري ربيع، ثم بلغه أن قبائل من نجد يتهيأون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان ، فتجهز لهم وخرج في سبعمائة مقاتل ، وولى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحدا غير نسوة فأخذهن ، فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال ، ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب ، فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضا ، ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلون ، صلى بالمسلمين صلاة الخوف ، فالقى الله الرعب في قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم •
وجاء رجل من محارب الى النبي صلى الله عليه وسلم فطلب منه أن ينظر الى سيفه ، فاعطاه السيف ، فلما أخذه وهزه قال : يا محمد أما تخافني ؟ قال : لا • قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال : لا ، يمنعني الله منك ، فرد السيف اليه •

غزوة بدر الآخرة

كان ابو سفيان بن حرب قد توعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمجيء اليه في العام المقبل ببدر ، فلما أهل شعبان خرج الرسول في ألف وسبعمائة من أصحابه حتى نزل بدرا ، فأقام عليها ثماني ليال ينتظر أبا سفيان •

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ، وقيل عسفان ، ثم بدا له في الرجوع فقال : يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم

الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن . وان عامكم هذا عام جدب ، واني راجع فارجعوا » فرجع الناس ، فسماهم اهل مكة جيش السويق ، يقولون انما خرجتم تشربون السويق .

وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أبي سفيان لميعاده ، أتاه مخشي بن عمرو الضمري . وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان ، فقال : يا محمد أجئت لميعاد قريش على هذا الماء ! قال : نعم يا أخا بني ضمرة ، وان شئت مع ذلك رددنا اليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا ، قال : لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك منك حاجة . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة .

حوادث

وفي هذه السنة (الرابعة للهجرة) تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة هندا زوج أبي سلمة بعد وفاته .

وفيها مات عبدالله بن عثمان بن عفان وكان عمره ست سنين ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها ولد الحسين بن علي بن ابي طالب .

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل (١)

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جمعا كثيرا بدومة الجندل

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة .

يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة • فندب عليه السلام الناس وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الاول في ألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، ومعه دليل له من بني عذرة يقال لـه مذكور •

فلما دنا منهم اذا بهم مغربون ، واذا آثار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه • فجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا •

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يلق بها أحدا ، فأقام بها أياما وبث السرايا وفرقها فرجعت ولم يصب منهم أحدا • فرجع عليه السلام الى المدينة •

وفي هذه السنة وادع النبي عيينة بن حصن وهو الذي كان يسميه عليه السلام « الأحمق المطاع » لأنه كان يتبعه ألف قناة ، وأقطعه عليه السلام أرضا يرعى فيها ماشيته على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة لأن بلاده كانت قد أجدبت •

غزوة بني المصطلق [1]

وتسمى أيضا غزوة المريسيع

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بني المصطلق تجمعوا له ،

---

(٢) في وقت هذه الغزوة خلاف بين رواة السيرة ذكره ابو عبدالله محمد بن عبد الباقي الزرقاني ، خاتمة المحدثين بالديار المصرية ، في كتابه « شرح المواهب اللدنية » وعقب عليه بما يلي : « وقال الحاكم في «الاكليل»: وقول عروة وغيره انها كانت سنة خمس أشبه من قول ابن اسحاق ؛ قلت :

وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، أبو جويرية احدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم • فخرج عليه السلام في جيش كبير ، وخرجت معه عائشة وأم سلمة زوجتاه • وكان معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها ، يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا ، وفي أثناء مسيره عليه السلام التقى بجاسوس بني المصطلق فسأله عن أحوال العدو فلم يجب ، فأمر بقتله •

ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه ، خاف هو وجيشه خوفا شديدا تفرق عنه بعضهم ولما وصل المسلمون الى المريسيع بناحية قديد الى الساحل ، تزاحف الناس واقتتلوا، فانهزم المشركون وقتل من قتل منهم ، وأسر الباقي مع الناس والذرية • واستاق المسلمون الابل والشياه ، وكانت الابل الفي بعير والشياه خمسة آلاف استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الاسرى بريدة •

ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق ، وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، فأتت رسول الله صلى الله

ويؤيده ما ثبت في حديث الافك ان سعد بن معاذ تنازع هو وسعد بن عبادة في أصحاب الافك ، فلو كانت المريسيع في شعبان سنة ست مع كون الافك منها ، لكان ما وقع في الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا ، لانه مات أيام قريظة ، وكانت في سنة خمس على الصحيح ، وان كانت كما قيل سنة أربع ، فهو اشد غلطا ، فظهر ان المريسيع كانت سنة خمس في شعبان قبل الخندق ، لانها كانت في شوال سنة خمس أيضا ، فيكون سعد بن معاذ موجودا في المريسيع ورمي بها بعد ذلك بسهم في الخندق ، ومات من جراحته في قريظة » .

عليه وسلم تستعينه في كتابتها ، فقال لها : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال : اقضي كتابتك وأتزوجك • قالت : نعم يا رسول الله • ففعل •

وخرج الخبر الى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية ، فقالوا : أصهار رسول الله ، وأعتقوا اكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق • فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم •

وبينما الناس على ذلك الماء ، وقعت مشاجرة بين أجير لعمر بن الخطاب اسمه جهجاه وبين سنان بن واقد الجهني حليف بني عوف من الخزرج • فصرخ الجهني : يا معشر الانصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين • فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبر الخبر ، فقال : دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ، ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه ، وبذلك سكنت الفتنة •

فلما بلغ عبدالله بن ابي هذا الخصام غضب ، وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة ، أوَ قَدْ فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون الا كما قال الاول : سمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، ثم أقبل على من حضر من قومه وقال : هذا ما فعلتم بانفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم

حتى جعلتم أنفسكم غرضا للسنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده •

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت ، فقال والله يا رسول الله لقد سمعته • قال : لعله أخطأ سمعك ؟ فاستأذن عمر بن الخطاب الرسول في قتل ابن ابي او أن يأمر احدا غيره بقتله ، فنهاه عن ذلك وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ثم أذن بالرحيل ، فارتحل الناس في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه فلقيه أسيـــد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت ؟ فقال عليه السلام : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ : زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، قال : أنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت ، هو والله الذليل وانت العزيز •

ثم مشى عليه السلام بالناس سيرا حثيثا حتى آذتهم الشمس ، فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض فوقعوا نياما ، وكلم رجال من الانصار عبدالله بن أبي في أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر • وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبدالله ابن أبي واخوانه وصدقت زيد بن أرقم ، ولما بلغ ذلك عبدالله بن عبدالله ابن أبي استأذن رسول الله في قتل أبيه حذرا من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد ، فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه •

★★★

حديث الأفك

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ، وكان قريبا من المدينة ، بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل هو والناس ، وكانت عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه ، فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه ، لان النساء كن اذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، وكانت عائشة جارية حديثة السن ، فرجعت الى المعسكر بعد ان وجدت عقدها وليس بالمعسكر داع ولا مجيب ، فتلفلفت بجلبابها ونامت .

وبينما هي نائمة اذ مر صفوان بن المعطل السلمي وكان تخلف عن العسكر لحاجته ، فلم يبت مع الناس ، فلما رأى سوادها أقبل حتى وقف عليها فعرفها ، لانه كان رآها قبل الحجاب ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها ، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة . ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة ، فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان ، والذي تولى كبر الافك عبدالله بن أبي .

ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهرا والناس يفيضون في قول آهل الافك وهي لا تشعر بشيء ، وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت ، فلم يعطها نصيبا منها في هذا المرض ، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم ؟ مما جعلها في ريب عظيم ، فلما نقهت خرجت هي وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الافك للتبرز خارج البيوت ، فعثرت أم

مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقالت عائشة : بئس ما قلت !! أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت يا هنتاه أو لم تسمعي ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك ، فأخبرتها الخبر ، فازدادت مرضا على مرضها •

ولما جاءها عليه السلام كعادته ، استأذنته أن تمرض في بيت أبيها فأذن لها ، فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية ، هوني عليك ، فوالله قل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا كثرن وكثر الناس عليها • فقالت عائشة سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا !! وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم •

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فخطبهم ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهن غير الحق ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه الا خيرا وما دخل بيتا من بيوتي الا معي •

فلما قال رسول الله تلك المقالة ، قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ان يكونوا من الاوس نكفكهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك •

فقال سعد بن عبادة : والله ما قلت هذه المقالة الا وقد عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا •

فقام أسيد بن حضير وقال لسعد : كذبت ولكنك منافق تجادل عن المنافقين •

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب واسامة

بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيرا ، وأما علي فقال : ان النساء لكثير وسل الخادم تصدقك .

فدعا عليه السلام بريرة يسألها ، فقالت : والله ما اعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب عليها الا انها كانت تنام ع ن عجينها فيأتي الداجن فيأكله .

وبينما عائشة مع أبويها اذ دخل النبي عليه السلام فسلم ثم جلس فحمد الله واثني عليه وقال : يا عائشة انه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فان كنت قارفت سوءا فتوبي الى الله .

فتقلص دمع عائشة ـ وكانت تبكي ـ وقالت لابويها : ألا تجيبانه ؟ فقالا : والله ما ندري بماذا نجيبه .

فقالت : اني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حيث قال : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

ولم يبرح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات ببراءة عائشة : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ

اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ • وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ • إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ • وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ • يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ • إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ في الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ • وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

فسري عن رسول الله وهو يضحك ، وبشر عائشة بالبراءة ، فقالت لها أمها : قومي واشكري رسول الله ، فقالت لا والله ، لا أشكر الا الله الذي برأني •

وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك ثمانين جلدة وهي حد القاذف ، وكانوا ثلاثة ، حمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت • وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه ، فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة فأنزل اللهُ « وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

فقال ابو بكر : اني أحب ان يغفرالله لي ، ورجع الى مسطح نفقته . ثم ان صفوان بن المعطل اعترض حسان بن ثابت بالسيف فضربه ، ثم قال :

تلق ذباب السيـف عني فانني   غلام اذا هوجيت لست بشاعر

فوثب ثابت بن قيس فجمع يديه الى عنقه وانطلق به الى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبدالله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ فقال : ضرب حسان وما أراه الا قتله فقال عبدالله : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء مما صنعت ؟ قال : لا والله . قال : لقد اجترأت ، أطلق الرجل . فأطلقه . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا حسان وصفوان ، فقال صفوان : هجاني يا رسول الله فضربته . فقال رسول الله لحسان : أحسن يا حسان . قال : هي لك يا رسول الله ، فأعطاه الرسول عوضا منها بَيْرَحَاء ، وهي قصر بني حديلة .

غزوة الخندق

سبب هذه الغزوة أن يهود بني النضير بعد ان أجلوا عن ديارهم ، ذهب وفد منهم لقريش في مكة وحرضوهم على حرب رسول الله وقالوا لهم : انما سنكون معكم حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، انكم أهل الكتاب الاول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، فديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه » فسر قريشا ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله ، واجتمعوا لذلك واستعدوا له .

ثم ذهب ذلك الوفد من اليهود حتى جاءوا غطفان ، فدعوهم الى حرب المسلمين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فأجابوهم •

فخرج القرشيون في أربعة الاف مقاتل ، وخرجت غطفان في ألف فارس ، وخرجت بنو مرة في أربعمائة ، وبنو أشجع وبنو سليم في سبعمائة وخرجت بنو أسد أيضا ، فبلغ عدة الجميع عشرة الآف مقاتل يقودهم أبو سفيان بن حرب •

فلما بلغ رسول الله خبر هذه الجموع استشار أصحابه في العمل، فاقترح سلمان الفارسي ان يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يشمل المناطق التي يتوقع ان تدخل منها جيوش المشركين ، وقا ل: يا رسول الله ، ان كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا عليها •

فأمر النبي عليه السلام أصحابه بالعمل في حفر الخندق فورا ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في عملية الحفر ، لانهم لم يكونوا في سعة من العيش حين يتيسر لهم العمل ، بالاضافة الى مواصلة الحفر طيلة النهار ليتمكنوا من الانتهاء منه قبل وصول المشركين اليهم •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل معهم ، فكان ينقل التراب متمثلا بشعر ابن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينـا ... ولا تصدقنـا ولا صلينـا
فأنزلن سكينـة علينـا ... وثبت الأقـدام ان لاقينـا
والمشركون قد بغوا علينـا ... وان أرادوا فتنة أبينـا

ولما فرغ المسلمون من حفر الخندق ، استعرض النبي عليه السلام جيشه وقسمه الى فرقتين : الاولى فرقة المهاجرين وأعطى لواءها لزيد بن حارثة ، والثانية فرقة الانصار واعطى لواءها لسعد بن عبادة . وقد تحصن المسلمون وراء الخندق العميق وجعلوا ظهورهم الى جبل سلع . وامر عليه السلام بالذراري فجعلوا في الآطام . وكان عدد المسلمين نحو ثلاثة الاف مقاتل على أكثر تقدير .

واقبلت قريش حتى وصلت الى المدينة ، فعسكر جيشها في مجمع الاسيال ، وأقبلت غطفان فعسكر جيشها في الطرف الغربي من جبل أحد . وكان عدد جيوش الاحزاب نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحلافها وغطفان وأحلافها . وكان ابو سفيان القائد العام لهذه الجيوش .

وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله علي سلم على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده . فلما سمع كعب بحيي ابن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى ان يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب ، افتح لي ؛ قال : ويحك يا حيي ، انك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصدقا ، قال : ويحك ، افتح لي اكلمك ، قال : ما أنا بفاعل، قال : والله ما اغلقت دوني الا تخوفا على جشيشتك أن آكل معك منها . فغضب كعب ففتح له فقال حيي : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى انزلتهم الى جانب أحد ، قد عاهدوني على ان لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ،

ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي ، فدعني وما أنا عليه ، فاني لم آر من محمد الا صدقا ووفاء .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب ، حتى حمله على الغدر بالنبي ، ففعل ونكث العهد . وعاهده حيي ان عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما أصابه .

فلما انتهى الخبر الى رسول الله والى المسلمين ، دعا عليه السلام سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم آم لا ؟ فان كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاء الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله وقالوا : من رسول الله ، لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة .

ثم أقبل سعد بن معاذ وصحبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة (أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع) ، فقال رسول الله : الله اكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

عند ذلك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا ، لان العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وعم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال قائلهم : كان محمد يعدنا أن نأكل

كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط •

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخندق ، وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الا الرمي بالنبل •

فلما اشتد على الناس البلاء ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان ، فعرض عليهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فأجابا الى ذلك •

ثم استشار رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقالا : يا رسول الله ، شيء تحب ان تصنعه ، أم شيء أمرك الله به أو شيء تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء اصنعه لكم • والله ما اصنع ذلك الا لانني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، واشتدوا عليكم من كل جانب ، فأردت أن اكسر عنكم من شوكتهم الى امر ما فقال له سعد بن معاذ : قد كنا نحن وهم على الشرك ، ولا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة الا قرى أو بيعا ، فحين اكرمنا الله بالاسلام نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، ولا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك •

ولما اشرف المشركون على الخندق تعجبوا من صنعه لانهم ما كانوا يعرفونه ووقفوا دونه ، فلما طال مقامهم على غير جدوى ، حملت الشجاعة بعضهم الى اقتحامه ، فاجتازوا ببني كنانة وقالوا : تجهزوا للحرب وستعلمون من الفرسان ، ثم جالت خيولهم في السنجة بين الخندق وجبل سلع • وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة،

وكان عمرو بن عبد ود ـ أحد الفرسان الذين اقتحموا الخندق ـ قد خرج معلما ، فقال له علي : يا عمرو ، انك عاهدت ان لا يدعوك رجل من قريش الى خصلتين الا أخذت احداهما ، قال أجل . قال علي : فاني ادعوك الى الله والاسلام . قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فاني أدعوك الى النزال . قال : ولم يا بن أخي ؟ فوالله ما احب ان اقتلك . قال له علي : لكني والله أحب ان اقتلك .

فحمي عمرو عند ذلك ، فاقتحم ونزل عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم اقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي . وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وكانت عائشة أم المؤمنين في حصن بني حارثة يوم الخندق ، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن ، فمر سعد وعليه درع له مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يرقد بها «يسرع بها» ويقول :

لبّث قليلا يشهد الهيجا حمل لا بأس بالموت اذا حان الاجل

فقالت له أمه : الحق يا بني ، فقد والله أخرت ، فقالت لها عائشة : يا أم سعد ، والله لوددت ان درع سعد كانت اسبغ مما هي . ثم رمي سعد بسهم قطع اكحله (عرق في الذراع) ، فقال : اللهم ان كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، فانه لا قوم أحب الي ان اقاتلهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وان كنت وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة .

وبينما المسلمون في هذا الامر المريج ، هيأ الله لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون ، فقد اقبل نعيم بن مسعود الاشجعي ـ وهو صديق

قريش واليهود وبني غطفان ـــ حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، اني قد أسلمت ، وقومي لا يعلمون باسلامـــي ، فمرني بأمرك حتى أساعدك فقال عليه السلام : أنت رجل واحد وماذا عسى ان تفعل ؟ ولكن خذّل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة .

الخدعة في الحرب

فخرج نعيم من عند رسول الله وتوجه الى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم فقال : يا بني قريظة تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم واني محدثكم حديثا فاكتموه عني ، قالوا : نعم، فقال : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من اجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم ، وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها والا انصرفوا لبلادهم . وأما أنتم فتساكنو نالرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم ، فأرى أن لا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان انهم لن يتركوكم ويذهبوا الى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفا منهم ، فاستحسنوا رأيه وأجابوه الى ذلك . ثم قام من عندهم وتوجه الى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال : أنتم تعرفون ودي لكم ومحبتي اياكم ، واني محدثكم حديثا فاكتموه عني ، قالوا : نفعل ، فقال لهم : ان بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذي كسرت (يريد بني النضير) فرضي بذلك منهم ، وها هم مرسلون اليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا. ثم أتى غطفان فاخبرهم بمثل ما أخبر به قريشا .

فلما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس

غطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ لما بيننا وبينه • فأرسلو اليهم ان اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فانا نخشى ان نالت منكم الحرب ، واشتد عليكم القتال ان تسرعوا في الرجوع الى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به •

فلما رجعت الرسل من قريظة قالت قريش وغطفان : ان الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، وأرسلوا الى بني قريظة : لسنا لندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا • فقالت بني قريظة حين انتهت اليهم الرسل بهذا : ان الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق • ما يريد القوم الا ان تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك رجعوا الى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم•

فأرسلوا الى قريش وغطفان : انا لن نقاتل معكم محمدا حتى تعطوا رُهنًا فتفرقت القلوب وخاف بعضهم بعضا ، وكان رسول الله قد ابتهل الى الله الذي لا ملجأ الا اليه ودعاه بقوله :

(اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الاحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم) • وقد أجاب الله دعاه عليه السلام ، فأرسل على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة ، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمة ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح • ولما سمع عليه السلام الضوضاء في جيش العدو،

قال لأصحابه : لا بد من حادث ، فمن منكم ينظر لنا خبر التوم ، فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثا . وكان فيهم حذيفة بن اليمان ، فقال عليه السلام : تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب ! فقال : يا رسول الله ! البرد شديد ، فقال : اذهب في حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم ، فذهب ودخل في القوم ، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل ، لا يقرّ لهم قدر ولا نار ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر كل رجل من جليسه ، ثم قال : لقد هلك الخف والحافر ، واخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من الريح ما ترون ، فارتحلوا فاني مرتحل .

ورجع حذيفة الى النبي واخبره الخبر ، فشاع الخبر في صفوف المسلمين وهتفوا : « لا إلهَ إلاّ الله وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْـدَهُ ، فَلا شَيْءَ بَعْدَهُ » .

وحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ثم قال : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير اليهم .

فكان كذلك حتى فتح الله مكة .

غزوة بني قريظة

أصبح النبي منصرفا عن الخندق ، راجعا الى المدينة ، ووضع المسلمون السلاح ، ولما كان الظهر امر رسول الله مؤذنا فأذن في الناس: من كان سميعا مطيعا ، فلا يصلين العصر الا في بني قريظة فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكبا على حماره ولواؤه بيد علي بن أبي طالب وخليفته على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وقد

أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق ، فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ، ولم يصلها الآخرون الا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الامر على حقيقته ، فلم يعنف فريقا منهم .

ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين القى الله الرعب في قلوبهم ، وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة ، وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ، ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم ، وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب ، وأنهم ان استمروا على ذلك ماتوا جوعا ، طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالاموال وترك السلاح ، فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فطلبوا أن يجلوا بانفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضا ، بل قال : لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيرا كان أو شرا ، فقالوا له : أرسل لنا أبا لبابة نستشيره ـ وكان أوسيا من حلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال ـ فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول . فقال لهم : أنزلوا ، وأومأ بيده الى حلقة ، (يريد أن الحكم الذبح) ، ويقول أبو لبابة : لم أبارح موقفي حتى علمت اني خنت الله ورسوله ، فنزل من عندهم قاصدا المدينة خجلا من مقابلة رسول الله وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره . ولما سأل عنه عليه السلام أخبر بما فعل ، فقال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه ، وقد بقي كذلك حتى تاب الله عليه ، وأطلقه رسول الله .

ثم ان بني قريظة لما لم يروا بدا من النزول على حكم رسول الله

فعلوا ، فأمر برجالهم فكتفوا ، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء اخوانهم الخزرج ، فقال لهم : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا : نعم . واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحا من السهم الذي أصيب به في الخندق ، وكان مقيما بخيمة في المسجد معدة لمعاملة الجرحى ، فأرسل عليه السلام من يأتي به ، فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له : أحسن في مواليك ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه ؟ فقال رضي الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس قال عليه السلام : قوموا الى سيدكم فقاموا اليه وانزلوه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم احكم فيهم يا سعد . فقال : الله ورسوله احق بالحكم . فقال صلى الله عليه وسلم : قد أمرك الله أن تحكم فيهم .

فنظر سعد الى المسلمين وقال : عليكم بذلك عهدالله وميثاقه ان الحكم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . ثم التفت الى الناحية الاخرى التي فيهاالنبي صلى الله عليه وسلم وغض بصره عن رسول الله اجلالا له واكبارا وقال : وعلى من ههنا العهد أيضا ؟ فقال عليه السلام : نعم . ثم اشار الى بني قريظة ليستوثق منهم أيضا قائلا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم .

فقال سعد : اني احكم فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذراري والنساء . فقال رسول الله لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة (سماوات) .

فلما سمع بنو قريظة حكم سعد عليهم ألقوا سلاحهم واستسلموا .

ثم شرع رسول الله في اتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ الحكم ، فأمر بحفر الخنادق العميقة لتدفن بها الجثث بعد الاعدام ، فلما تم كل ذلك ، أمر عليه السلام باحضار المحكوم عليهم واعدامهم ، فضربت اعناقهم فوجا بعد فوج ، ثم انزلوهم في الخنادق وواروهم التراب •

وكان اليهود يقولون لكعب بن أسد وهم يسيرون الى رسول الله : يا كعب ، ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفي كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع ، وانه من ذُهب به منكم لا يرجع ، هو والله القتل •

وكان حيي بن أخطب النضري على رأس الذين نفذ فيهم حكم الاعدام من اليهود ، وسبب ذلك ، أن حيي كان قد تعهد لكعب بن أسد ، سيد بني قريظة ، بأن يدخل في حصنهم اذا ما رجعت قريش وغطفان ، فلما رجعوا ، وفى بعهده ودخل معهم حتى لاقى مصيره • قال ابن اسحاق : وأتي بحيي مجموعة يداه الى عنقه بحبل ، وعليه حلة فقاحية قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها ، فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، انه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل • ثم جلس فضربت عنقه •

وبعد حيي سيد بني النضير ، اتي بكعب سيد بني قريظة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا كعب ، قال : نعم يا أبا القاسم • قال : ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا بي ، أما أمركم باتباعي وان رأيتموني تقرأوني السلام ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك ، فأمر النبي ان تضرب عنقه ، فضربت •

أما النساء من بني قريظة فلم يقتل منهن الا امرأة واحدة كانت قد طرحت رحى على خلاد بن سويد فقتلته .

وبعد تمام هذا الامر أحصيت الغنائم من سبي وأموال فكانت ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وجحفة ووجد أثاثا كثيرا وآنية وأجمالا تواضح وشياها ، فخمس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس وأعطي النساء اللاتي يمرضن الجرحى، ووجد في الغنيمة جرار خمر فأريقت .

ولما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات منه وعمره سبع وثلاثون سنة . وحزن عليه النبي صلى الله عليه وسلم . وفي الحديث : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ .

وقال رجل من الانصار يرثيه :

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به الا سعد أبي عمرو

زواج زينب بنت جحش

وفي هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بن رئاب الاسدية ، وهي ابنة عمته . كانت زوجة مولاه زيد بن حارثة ، واسمها برة ، وطلقها زيد فتزوج بها النبي وسماها زينب . وكانت من أجمل النساء . وبسببها انزلت آية الحجاب .

فرض الحج

وفيها فرض الله على المسلمين حج البيت من استطاع اليه سبيلا

ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار فيتجهوا الى الله ويبتهلوا اليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى •

السنة السادسة

سرية القرطاء

القرطاء بطن من بني أبي بكر بن كلاب ، كانت منازلهم في «البكرات» بناحية « ضرية » على سبع ليال من المدينة في طريق البصرة • وكانوا من المشركين •

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة ، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الاوسي الانصاري في ثلاثين راكبا لشن الغارة عليهم • فسار اليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم ، فقتل نفرا منهم وهرب سائرهم تاركين وراءهم النعم والاغنام ، فاستاقها محمد بن مسلمة ثم قفل وصحبه راجعين الى المدينة •

وبينما هم في الطريق التقوا بثمامة بن أثال بن النعمان الحنفي ، سيد أهل اليمامة ، فأسروه وهم لا يعرفونه ، ولما دخلوا المدينة ربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفه ، فعامله بمنتهى مكارم الاخلاق ثم أطلق سراحه •

فلما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم ، رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك دينا عماده المحامد ، فأنطلق الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا عبده ورسوله • ثم خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : يا محمد ،

والله ما كان على الارض أبغض اليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها اليّ ، والله ما كان على الارض من دين أبغض اليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله اليّ ، والله ما كان من بلـد أبغض اليّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد اليّ ، • فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا باسلامه لان من ورائه قوما يطيعونه •

ولما رجع ثمامة الى بلاده مرّ بمكة معتمرا وأظهر فيهـا اسلامه ، فأرادت قريش ايذاءه ، ولكنهم تذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة ــ بلد ثمامة ــ فتركوه • ومع ذلك فقد حلف ثمامة ان لا يرسل اليهم حبوبا حتى يؤمنوا بالدين الجديد •

وقد حاولت قريش الحصول على الحبوب بمختلف الوسائل ولكنهم فشلوا ، فلم يروا بدا من الاستغاثة برسول الله• فعاملهم ــ عليه السلام ــ بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة ، وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ، ففعل •

وقد كان لثمامة قدم راسخة في الاسلام عقب وفـاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ارتد أهل اليمامة في فتنة مسيلمة الكذاب ، ثبت هو على اسلامه وقال لقومه : اياكم وأمرا مظلما لا نور فيه ، وانه لشقاء كتبه الله على من اتبعه • ثم لحق بالعلاء بن الحضرمي ، في جمع ممن ثبت معه ، فقاتل المرتدين من أهل البحرين ، وقتل بعيد ذلك •

غزوة بنو لحيان

بنو لحيان قبيلة عربية نزلت شمالي شرقي مكة • وعند ظهور الاسلام

كانت تحت نفوذ قبيلة قريش السياسي ، فقاومت النبي صلى الله عليه وسلم في بادىء الامر ثم خضعت له •

وبنو لحيان هؤلاء ، هم الذين قتلوا السبعين صحابيا الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة للهجرة الى أهل نجد ليدعوهم الى الاسلام ، بناء على رغبة عامر بن مالك ملاعب الاسنة ، فلما وصلوا الى بئر معونة أحاط بهم بنو لحيان وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعا لقلة عددهم وكثرة عدوهم • فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وأقام يدعو على الغادرين بهم شهرا في الصلاة •

ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا على هؤلاء الشهداء متشوقا للقصاص من عدوهم حتى جمادى الاولى من السنة الخامسة ، لستة أشهر من فتح بني قريظة ، فأمر أصحابه بالتجهز وأظهر انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ، ثم استعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج في مائتي راكب معهم عشرين فرسا ، فسلك على طريق الشام اولا ، ثم اتجه نحو اليسار ، ثم رجع الى طريق مكة وأجد السير حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم • ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال، فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحدا ، ثم أرسل بعضا من أصحابه ليأتوا عسفان (موضع قرب مكة) حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب ، فذهبوا الى كراع الغميم (جبل جنوبي عسفان) ثم رجع عليه السلام الى المدينة وهو يقول : (آيبون تائبون ، لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الاهل والمال) •

غزوة الغابة

كان للنبي عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة ، فأغار عليها عيينة ابن حصن في أربعين راكبا واستلبها من راعيها ، فجاءت الاخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والذي بلغه هو سلمة بن الاكوع أحد رماة الانصار وكان عَدّاء ، فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون ، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل ، فاذا وجهت الخيل نحوه رجع هاربا فلا يلحق ، فاذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة ، حتى ألقوا كثيرا مما بأيديهم من الرماح والابراد ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش فان الرسول دعا أصحابه فأجابوه ، وأول من انتهى اليه المقداد بن الأسود فقال له : اخرج في طلب القوم حتى ألحقك ، وأعطاه اللواء فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو ، فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية ، وطلب سلمة ابن الاكوع من رسول الله ان يرسله مع جماعة في اثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم ، فقال له عليه السلام (ملكت فأسجح) ثم رجع بعد خمس ليال .

سرية

اعتاد بنو أسد أن يؤذوا من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن بن حرثان الاسدي ، في أربعين راكبا ليغير عليهم ، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا ، وهناك وجدوا رجلا نائما

فأمنوه ليدلهم على نعم القوم ، فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ، ثم قدموا المدينة ولم يلقوا حربا •

سرية

وبلغه عليه السلام أن قوما بذي القصة وهو موضع بقرب المدينة يريدون الاغارة على ماشية المسلمين التي ترعى بالهيفاء ، فأرسل لهم محمد ابن مسلمة في عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلا وقد كمن المشركون حينما علموا بهم ، فنام المسلمون ولم يشعروا الا والنبل قد خالطهم ، فتواثبوا على أسلحتهم ، ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد ابن مسلمة تركوه لظنهم أنه قتل ، فعاد الى المدينة وأخبر الرسول عليه السلام فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخرة ليقتص من الأعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين ، فاستاق نعمهم ورجع •

سرية

عاكس بنو سليم — الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق — المسلمين في سيرهم ، فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة في ربيع الآخرة ليغير برجال معه عليهم في الجموم ، فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بني سليم ، فأصابوا بها نعما وشاء ووجدوا رجالا أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها •

سرية

وبلغ الرسول أن عيرا لقريش آيبة الى مكة من الشام فأرسل لها

زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكبا ليعترضها ، فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وأمانة ، فاستجار بزوجه زينب فأجارته ، ونادت بذلك في مجمع قريش ، فقال عليه السلام : « الْمُسْلِمُونَ يَدٌ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ وَقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ »وردّ عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئا ، فذهب الى مكة فأدى لكل ذي حق حقه ورجع الى المدينة مسلما فرد عليه رسول الله زوجه .

سرية

وأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلا للاغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف ، فتوجهت السرية لذلك ، ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله ، فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم ، فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليال .

سرية

وأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة ليغير على بني فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه ، فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر ، أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادي القرى ، فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعا كبيرا وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة ، فاستوهبها عليه السلام ممن أسرها وفدى بها أسيرا كان بمكة .

سرية

وفي شعبان أرسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعماية من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر بقوله « أغزوا جميعا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو فدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الاصبغ بن عمرو النصراني وأسلم معه جمع من قومه ، وبقي آخرون راضين باعطاء الجزية. وقد تزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه السلام .

سرية

وفي شعبان أرسل النبي عليه السلام علي بن أبي طالب في مائة رجل لغزو بني سعد بن بكر بفدك لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر ، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس للعدو أرسلوه الى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها ، فطلب المسلمون منه أن يدلهم على القوم وهو آمن ، فدلهم على موضعهم ، فاستاق منه المسلمون انعام القوم وهرب الرعاة فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا ، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة .

قتل أبي رافع

كان أبو رافع سلام بن ابي الحقيق سيد يهود خيبر ، وكان يثير أهل

خيبر لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتدب اليه من يقتله ، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبدالله بن عتيك ليكون لهم مثل أجر اخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فان من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ، فلا تعمل الأوس عملا الا اجتهد الخزرج في مثله ، فامرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم أن لا يقتلوا وليدا ولا امرأة، فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبدالله لأصحابه : انتظروني هنا فاني منطلق للبواب ومتلطف له لعلي أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجته وقد دخل الناس ، فهتف به البواب أدخل يا عبدالله ان كنت تريد الدخول ، فاني أريد أن أغلق الباب ، فدخل وكمن حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ، ثم توجه الى بيت ابي رافع وصار يفتح الأبواب التي توصل اليه ، وكلما فتح بابا أغلقه من داخل حتى انتهى اليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، فلم يمكنه تمييزه فنادى يا أبا رافع ، قال : من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئا ، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن أبي عتيك ، فقال لها : ثكلتك أمك وأين ابن أبي عتيك الآن ؟ فعاد عبدالله للنداء مغيرا صوته قائلا : ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع ؟ قال لأمك الويل ان رجلا في البيت ضربني بالسيف ، فعمد اليه فضربه أخرى لم تغن شيئا فتوارى ، ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقيا على ظهره فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ، ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفا فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ، ثم انطلق الى أصحابه ، وقال النجاة ، قتل والله أبو رافع ، فانتهوا الى الرسول فحدثوه ثم قال لعبدالله : أبسط رجلك ، فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها قط ، وعادت أحسن ما كانت •

سرية

ولما قتل كعب بن الاشرف سيد خيبر ولى اليهود مكانه أسير بن رزام فبلغ رسول الله انه يتأهب لقتاله . فأرسل عليه السلام عبدالله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته ، فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال : نعم ولي مثل ذلك ، فأجابوه ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش أهلها بسلام ، فأجاب الى ذلك وخرج في ثلاثين يهوديا كل يهودي رديف لمسلم ، وبينما هم في الطريق ندم أسير بن رزام على مجيئه وهمّ بقتل ابن رواحة فقال له : أغدرا يا عدو الله ! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ولم يلبث أن هلك ، فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم .

نهاية عكل وعرينة

قدم جماعة من عكل وعرينة على رسول الله وكانوا سقاما مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم فلم يوافقهم هواء المدينة ، فأمر لهم عليه السلام بذود من الأبل معها راع وأمرهم باللحوق بها في مراعيها ليشربوا من ألبانها ففعلوا ، ولما تم شفاؤهم جازوا الاحسان كفرا فقتلوا الراعي ومثلوا به واخذوا الابل ، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر في عشرين فارسا فلحقوا بهم وقبضوا على جميعهم ، ولما جيء بهم الى المدينة أمر عليه السلام أن يمثل بهم كما مثلوا بالراعي ، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا بالحرة حتى ماتوا .

سرية لأبي سفيان

خطر ببال ابي سفيان بن حرب ان يستأجر من يغتال النبي صلى

الله عليه وسلم ، فجلس ذات يوم في نادي قومه فقال : الا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدا فانه يمشي بالأسواق لنستريح منه ؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد ، فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك ، فخرج الرجل حتى وصل الى المدينة ، فسأل عن رسول الله فدل عليه وهو بالمسجد ، فلما رآه عليه السلام قال ان هذا الرجل ليريد شرا وان الله مانعي منه ، وذهب الرجل لينحني على الرسول ، فجذبه أسيد بن حضير من ازاره ، وهنالك سقط خنجره ، واعترف بما دعي اليه وندم على فعلته ، ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله ، فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه ، فخلى عليه السلام سبيله، فقال الرجل والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال ، فما هو الا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم انك اطلعت على ما همت به مما لم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وانك على حق ، وان حزب أبي سفيان حزب الشيطان . ثم أسلم .

وعند ذلك أرسل رسول الله عمرو بن أمية الضمري ــ وكان رجلا جريئا فاتكا في الجاهلية ــ وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه ، فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له ، فعرف أحد رجال مكة عمرو فقال : هذا عمرو بن أمية ما جاء الا بشر ، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصا من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا الى المدينة .

غزوة الحديبية

في ذي القعدة من هذه السنة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرا لا يريد حربا ومعه جماعة من المهاجرين والانصار ومن تبعه من الاعراب تبلغ عدتهم ألف وخمسمائة ، وساق الهدي معه ليعلم الناس انه

انما جاء زائرا البيت • فلما بلغ عسفان لقيه بشر بن سفيان فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، وقد لبسوا جلود النسور ، ونزلوا بذي طوى ، وعاهدوا أنفسهم آلا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم بكراع الغميم (موضع بين مكة والمدينة) •

فقال رسول الله : يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فان أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال اجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة • ثم قال : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم الى مستوى سهل يملك مكة من أسفلها • فلما رأى خالد ما فعل المسلمون ، رجع الى قريش وأخبرهم الخبر •

ولما كان عليه السلام بثنية المرار [1] بركت ناقته ، فزجروها ، فلم تقم ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال عليه السلام ما خلأت وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها ، ثم أمرهم عليه السلام بالنزول أقصى الحديبية ، وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي رسولا من قريش في نفر من قومه يسأل عن سبب مجيء المسلمين ، فأخبره عليه السلام بمقصده ، فلما رجع بديل الى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت

(١) مهبط الحديبية .

كذلك لأجداده ، وقالوا : أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمرا ، تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب مـا بيننا ، والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تطرف !

ثم بعثوا اليه حليس بن علقمة ــ وكان يومئذ سيد الأحابيش ــ وهم حلفاء قريش ، فلما رآه عليه السلام قال : هذا من قـوم يعظمون الهدي ، ابعثوه في وجهه حتى يراه ، ففعلوا ، واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن المطلب ، هلكت قريش ورب البيت ، ان القوم أتوا معتمرين !! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له : اجلس ، انما أنت أعرابي لا علم لك بالمكايد .

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه الـى رسول الله وقال : يا محمد ، قد جمعت أوشاب الناس ثم جئت الى أصلك وعشيرتك لتنفضها بهم ! انها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلهـا عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، فنال منه أبو بكر وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ، وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله ، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده اذا أراد ذلك ويقول : اكفف يدك ، فقال عروة : ويحك ما أفظك واغلظك ، فتبسم رسول الله ، فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن اخيك المغيرة بن شعبة ، قال : أي غدر ! وهل غسلت سوءتك الا بالامس ، ثم ان عروة يرمـق أصحاب النبي بعينه ، فرآهم اذا أمرهم ابتدروا أمره ، واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، واذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم ، وما يحدّون النظر اليه تعظيما له .

ثم رجع الى قريش فقال : والله يا معشر قريش اني قد جئت كسرى

في ملكه ، وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه• ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فانظروا رأيكم• فانه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح ؛ مع أنـي أخاف ان لا تنصروا عليه ؛ فقالت قريش : لا تتكلم بهذا ، ولكن نرده عامنا ويرجع الى قابل •

ثم دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليبعثه الى مكة ، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له • فقال : يا رسول الله ، اني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي اياها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني ، هو عثمان بن عفان •

فدعا رسول الله عثمان ، وبعثه الى أشراف قريش حتـى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم ، وأمر عليه السلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه ، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الاموي فبلغ ما حمل ، فقالوا : ان محمدا لا يدخلها علينا عنوة أبدا • ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، ثم انهم حبسوه ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل ، فقال عليه السـلام حينما سمع ذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب • ودعا الناس الى البيعـة ، ونادى المنادي : أيها الناس ، البيعة البيعة ، فثاروا الى رسول الله وهو تحت شجرة فبايعوه • ثم اتى رسول الله أن الذي وصل من أمر عثمان باطـــل •

صلح الحديبية

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الى رسول الله ، وقالوا له : ايت

محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب انه دخلها علينا عنوة ابدا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه الرسول قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله تكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الامر ، ولم يبق الا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ، قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟قال ابو بكر : يا عمر ، الزم غرزه ، فاني اشهد أنه رسول الله قال عمر : وانا أشهد انه رسول الله .

ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال :بلى، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا اعبد الله ورسوله ، لن اخالف أمره ، ولن يضيعني .

ثم دعا رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب : هذا ما صالح به محمد رسول الله سهيل بن عمرو . قال سهيل : لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك . فقال رسول الله : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ،

ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا اسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه •

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم •

ثم اتفقوا ان يعود المسلمون هذا العام فلا يدخلوا مكة وانه اذا كان عام قابل يدخلها الرسول بأصحابه ، ومعهم سلاح الراكب ، السيوف بالقرب ، ويقيمون بها ثلاثا •

ولما انتهى الامر، أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدي ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هما عظيما حتى انهم لم يبادروا بالامتثال ، فدخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا ، فقالت : يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمرا عظيما في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد ، فاذا رأوك فعلت تبعوك • فتقدم عليه السلام الى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا ، ثم رجع المسلمون الى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر •

ولما قر قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه فطلبها المشركون فقالت : يا رسول اني امرأة وإن رجعت اليهم فتنوني في ديني فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ

تُنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين، وما خرجت الا حبا لله ولرسوله ، ومتى حلفت لا ترد ، بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها . وفي الآية تحريم امساك الزوجة الكافرة بل ترد الى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها .

وقد تمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي رضي الله عنه من الفرار الى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال يا رسول الله : أتردني الى الكفار يفتونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم ؟! فقال : ان الله جاعل لك ولاخوانك فرجا ، فلم يجد بدا من اتباعه ، فرجع مع صاحبيه ، ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع الى المدينة وقال : يا رسول الله ، وفت ذمتك أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة فذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به ، واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، وسار اليه أبو جندل بن سهيل واجتمع اليه جمع من الاعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الامداد ، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في ابطال هذا الشرط ويعطونه الحق في امساك من جاءه مسلما ، فقبل منهم ذلك وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه السلام برد أبي جندل ، وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن

تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، وبالعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الامور ما أراد • وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه في أولها « انا فتحنا لك فتحا مبينا » فسمى الله هذه المعاهدة فتحا ، وكان هذا في أواخر سنة ست للهجرة •

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية رأى رسول الله تتميما لدعوته ان يكاتب الملوك يدعوهم الى الاسلام ، واتخذ اذ ذاك خاتما من فضة يختم به خطاباته ، وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية بن خليفة الكلبي بكتاب الى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليوصله الى الملك •

كتاب قيصر

وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى : أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم الاريسين [1] •

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(١) الفلاحين •

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال : انظروا لنا من قومه أحدا نسأله منه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : أنا ، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره ، فقال قيصر : أدن مني ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه انما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال : لا • قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا : قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال :لا•قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم • قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون • قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا • قال : هل يغدر اذا عاهد ؟ قال : لا ، ونحن الآن منه في ذمة ، لا ندري ما هو فاعل فيها • قال : فهل قاتلتموه ؟ قال:نعم• قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه سجال ، مرة لنا ومرة علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهي عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، فقال الملك : اني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم

تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا : فلو كان من آبائه ملك ، لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت بل يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم . وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، فقلت لا : وكذلك ايمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل قاتلتموه ؟ فقلت نعم وان الحرب بينكم وبينه سجال . وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي . وقد علمت أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم ، وان كان ما كلمتني به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، ولو أعلم أني أخلص اليه لتكلفت ذلك .

قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر ! ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها فأغلقت ثم قال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال : ردوهم علي ، فقال لهم : اني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم ، فسكتوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ، ولكنه رد دحية الكلبي ردا جميلا .

كتاب أمير بصرى

وأرسل صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي بكتاب الى أمير بصري ، فلما بلغ مؤته ، وهي قرية من عمل البلقاء بالشام ، تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له : أين تريد ؟ قال : الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال :نعم ، فأمر به فضربت عنقه ، ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره ، وقد وجد لذلك وجدا شديدا .

كتاب الحارث بن أبي شمر

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابا الى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق من قبل هرقل وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله ، الى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، واني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال من ينزع ملكي مني ؟ واستعد ليرسل جيشا لحرب المسلمين ، وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل الى قيصر يستأذنه في ذلك ، وصادف أن كان عنده دحية ، فكتب قيصر اليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيء بايليا (القدس) ما يلزم لزيارته ، فانه بعد أن هر الفرس نذر زيارتها فلما راى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

كتاب المقوقس

وأرسل عليه السلام كتابا الى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله ، الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فاني أدعوك بدعاية الاسلام،

أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فانما عليك اثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة .. الآية) .

فلما قرأه قال لحامله وهو حاطب بن أبي بلتعة : ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله اليه ؟ قال : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال : اني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهي عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة اخراج الغائب المستور والأخبار بالنجوى وسأنظر ، ثم كتب رد الجواب يقول فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت اليك بغلة تركبها والسلام)

كتاب النجاشي

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابا الى ملك الحبشة حمله عمرو بن أمية الضمري هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة سلام ، أما بعد فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك

القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، واني أدعوك الى الله وحده لا شريك لـه والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني ، فاني رسول الله واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى) .

ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام وقال لعمرو : اني أعلم والله ان عيسى بشر به ، ولكن أعواني بالحبشة قليل ، فانظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب . وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع الى رسول الله بالمدينة ، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها ، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر ، فتزوج عليه السلام أم حبيبة وهي بالحبشة ، والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه عليه السلام .

كتاب كسرى

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا الى كسرى ملك الفرس مع عبدالله بن حذافة وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فان أبيت فانما عليك اثم المجوس .

فلم يقابل كسرى هذا الكتاب بشيء من الاحترام بل مزقه وألقاه . وأمر عامله في اليمن أن يغزو المدينة ويأتيه برسول الله ، فاتفق أن تولى (شيرويه) بعد أن قتل والده ، فنهى عامل اليمن عن مقاتلة رسول الله .

كتاب المنذر بن ساوي

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي ملك البحريني بكتاب فيه دعوة للاسلام من نوع الكتب السابقة ، فكتب المنذر الى رسول الله : (أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهـل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ، فأحدث الي في ذلك أمرك) .

فكتب اليه عليه السلام ، بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد ، فاني أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وان رسلي قد أثنوا عليك خيرا ، واني شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية) .

وقد أسلم المنذر وحسن اسلامه ومات قبل ردة أهـل البحرين .

كتاب ملكي عمان

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص بكتاب الى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع

الهدى ، أما بعد ، فاني أدعوكما بدعاية الاسلام ، أسلما تسلما ، فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما ، وان أبيتما فان ملككما زائل وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما) •

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجلندي عما يأمر به الرسول وينهي عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهي عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهي عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، فقال ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ، ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعا • قال عمرو ان أسلم أخوك ملكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ، فقال عبد : ان هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال ، ولما ذكر المواشي قال يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه ؟ قال نعم ، فقال عبد : والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا • ثم ان عبدا أوصل عمروا لاخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكناه من الصدقات •

كتاب هوذة بن علي

ووجه عليه السلام سليط بن عمرو العامري بكتاب الى هوذة بن علي ملك اليمامة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هوذة بن علي • سلام على من اتبع الهدى وأعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك) •

فلما جاء الكتاب كتب في رده (ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك) ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألني قطعة من الارض ما فعلت ، باد و باد ما في يديه» فلم يلبث انمات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة، وكان عليه السلام يولي على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم.

السنة السابعة

غزوة خيبر

لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم . وفي السابع منه سار الى خيبر في الف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وكان معه من أزواجه أم سلمة ، ولما وصل جيش المسلمين الى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فقال عليه السلام : (ارفقوا بانفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم) .

وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض ، وهي حصون النطاة وحصون الكثيبة وحصون الشق ، والاولى ثلاثة حصن ، ناعم والصعب وقلة ، والثانية حصنان ، حصن أبي والبريء . والثالثة ثلاثة حصون : حصن القموص والوطيح والسلالم . فبدأ عليه السلام بحصون النطاة ، وعسكر المسلمون شرقيها بعيدا عن مدى النبل ، وأمر عليه السلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا ، فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة. ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ، ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة ، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم

يصنع في ذلك اليوم شيئا ، وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة . وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين ، حتى اذا كانوا في الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودي خارج في جوف الليل ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أدرك الرجل الرعب قال : ان أمنتموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم ، فقالوا دلنا فقد أمناك ، فقال ان أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم الى حصن الشق ، وسيخرجون لقتالكم غدا ، فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فاني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات (1) ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فانكم تنصبون المنجنيق ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك ، فقال عليه السلام لمحمد ابن مسلمة : سأعطي الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه ، فبات المهاجرون الانصار كلهم يتمنونها حتى قال عمر بن الخطاب : ما تمنيت الامارة الا ليلتئذ .

فلما كان الغد سأل عليه السلام عن علي بن أبي طالب فقيل له انه أرمد ، فأرسل من يأتيه به ، ولما جاء تفل في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء ، ثم أعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال . وهناك وجدوا اليهود متجهزين فخرج يهودي يطلب البراز فقتله علي ، ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه ، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة ، وانهزم الأعداء الى الحصن الذي يليه وهو حصن

---

(1) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونها وهم جوفها .

الصعب ، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيرا من الخبز والتمر. ثم تتبعوا اليهود الى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالا شديـدا حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا اليهود ، فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام ، فأمر عليه السلام مناديا يقول : كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئا .

ثم ان الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا الى حصن قلة ، فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه ، وفي اليوم الرابع دلهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها اليهود فمنعوها عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالا شديدا انتهى بهزيمتهم الى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون وبدءوا بحصن أبي فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاء حسنا حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ، ووجد المسلمون فيه أثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب المنهزمون منه الى حصن البريء فتمنعوا به أشد التمنع ، وكان أهله أشد اليهود رميا بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه ، فنصب المسلمون عليـه المنجنيق فوقع في قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد . فوجد فيه المسلمون اواني لليهود من نحاس وفخار ، فقال عليه السلام : اغسلوها واطبخوا فيها . ثم تتبع المسلمون بقايا العدو الى حصون الكثيبة ، وبدأوا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ، ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طالب ، ومنه سبيت صفية بنت حيي بن أخطب ، ثم سار المسملون لحصار حصني الوطيح والسلالم فلم يقاوم أهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم الا ثوبا واحدا على ظهره ، فأجابهم رسول الله الى ذاك وغنم المسلمون من هذين

الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية ووجدوا صحفا من التوراة فسلموها لطالبيها . وقد أمر عليه السلام بقتل كنانة بن أبي الحقيق لأنه أنكر حلى حيي بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور و دمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه السلام صفية بنت حيي سيد بني النضير وأصدقها عتقها ، وقد أسلمت رضي الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين .

النهي عن نكاح المتعة

ونهى عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة ، وهي النكاح لأجل ، وقد كان حلا في الجاهلية واستعمل في بدء الاسلام حتى حرمه الشرع في هذه السنة . ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية ، فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها .

رجوع مهاجري الحبشة

ولما رجع المسلمون الى المدينة قدم من الحبشة جعفر بن ابي طالب ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه بعد أن أقاموا فيها نحوا من عشر سنين آمنين مطمئنين ، وفرح عليه السلام بمقدمهم فرحا عظيما وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحا ، وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وكان زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها وهي

بالحبشة قبل ان تحضر الى المدينة ، وكان وكيله في هذا الزواج النجاشي نفسه .

وقدم في هذا الوقت على النبي عليه السلام الدوسيون اخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم ، فأعطاهم أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتح فدك

فدك هذا كان حصنا قريبا من خيبر يسكنه قوم من اليهود ، فأرسل اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب اليهم الطاعة ، فصالحوه على ان يتركوا حصنهم وأموالهم ويخرجوا بأنفسهم الى حيث أرادوا .

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين .

غزوة وادي القرى

وكان بهذا الوادي يهود دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الطاعة فلم يجيبوا وقاتلوا ، فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلا وغنموا منهم مغانم كثيرة ثم صالحهم عليه السلام وترك الارض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يخرجون منها ، وكذلك صنع بأرض خيبر ، وكان يرسل اليهم عبدالله بن رواحة لتقدير الثمر ، وكان تقديره شديدا عليهم ، فأرادوا أن يرشوه فقال لهم : يا أعداء الله تعطوني السحت ! والله لقد

جئتكم من عند احب الناس الي ولأنتم أبغض الي من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي اياكم وحبي اياه على أن لا أعدل .

اسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين اسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين ، وهم خالد بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاص السهمي وعثمان بن أبي طلحة العبدري ، فسر بهم عليه السلام سرورا عظيما وقال لخالد : (الحمد لله الذي هداك ؛ قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك الا الى خير) ، فقال : يا رسول الله أدع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشدها عليك ؛ فقال عليه السلام : (الاسلام يقطع ما قبله) .

سرية

كان جماعة من هوازن بوادي تربة يظهرون العداوة للمسلمين ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلا ، فسار اليهم ، ولما بلغهم الخبر تفرقوا ، فلم يجد بها عمر أحدا فرجع .

سرية

ثم أرسل عليه السلام بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرة بناحية فدك ، فلما ورد بلادهم لم يرمنهم أحدا فأخذ نعمهم . أما القوم فكانوا في الوادي فجاءهم الصياح ، فأدركوا بشيرا ليلا وهو راجع فتراموا بالنبل . ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى قتل غالب المسلمين

وجرح بشير جرحا شديدا حتى ظن أنه مات ، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر •

وأرسل عليه السلام غالب بن عبيد الله الليثي الى أهل الميفعة في مائة وثلاثين رجلا فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضا وأسروا آخرين ، وفي أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلا من المشركين . ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهد فظن أسامة أن عدوه انما قال ذلك تخلصا فقتله •

ولما رجع المسلمون الى المدينة وأخبر عليه السلام بفعلة أسامة قال : أقتلته بعد أن قال لا اله الا الله فكيف تصنع بلا اله الا الله ؟ قال : يا رسول الله انما قالها متعوذا من القتل • قال عليه السلام : فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟! فقال يا رسول الله : استغفر لي • قال عليه السلام : فكيف بلا اله الا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم ، وأنزل الله في ذلك في سورة النساء •

« وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُوقِنـاً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةَ » • ثم أمر عليه السلام أسامة أن يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ .

سرية

وبلغ رسول الله أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريبا من خيبر بأرض اسمها (يمن وجبار) للاغارة على المدينة ، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل ، فساروا اليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعما كثيرة وتفرق الرعاة ،

فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليا بلادهم ، ولـم يظفر المسلمون الا برجلين أسلما ؛ ثم رجعوا بالغنائم الى المدينة •

عمرة القضاء

يذكر القارىء ان معاهدة الحديبية قضت ان يعود رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة التالية للعمرة ، فلما جاء الموعد خرج عليـه السلام بمن كان معه عام أول واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري ، وساق معه الهدي ستين بدنة ، وأخرج معه السلاح حذرا من غدر قريش ، وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد ، وأحرم عليه السلام من باب المسجد المدني ، ولما انتهى الى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل يا رسول الله : حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تحمله ؟ فقال عليه السلام : لا ندخـل الحرم به ولكن يكون قريبا منا فان هاجنا هائج فزعنا له » •

فلما كان بمر الظهران قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا الى قومهم فأخبروهم ، فجاءه فتيان منهم وقالوا : والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا وانا لم نحدث حدثا !! فقال : انا لا ندخل الحرم بالسلاح • ولما حان وقت دخوله مكة ، خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء ، وأمامه عبد الله بن رواحة يقول :

« لَا إِلَـهَ إِلاَّ ٱللهَ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ » .

وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه، وأمر أصحابه ان يسرعوا ثلاثة أشواط اظهارا للقوة لأن المشركين قالوا :

سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب ، فقال عليه السلام : رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة ، واضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى وفعل مثله المسلمون ، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آملين محلقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام في منامه •

زواج ميمونة

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر نسائه زواجا ، ولم يدخل بها الا بعد الخروج من مكة ، ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ، ثم رجع عليه السلام الى المدينة فرحا ومسرورا بما حباه الله من تصديق رؤياه •

السنة الثامنة

سرية

وفي صفر من السنة الثامنة أرسل عليه السلام جنودا الى بني الملوح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد ، فسار القوم حتى اذ اكانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء وكان خصما لدودا فأسروه ، فقال لهم : ما جئت الا للاسلام ، فقالوا له ان تكن مسلما لن يضرك رباط ليلة والا استوثقنا منك • ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصياح الى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ، ولكن من الله على المسلمين فأرسل سيلا جارفا مكن المغيرين من سوق النعم وأصحابها لا يستطيعون حراكا •

سرية

ولما رجع قائد هذه السرية وهو غالب بن عبدالله الليثي الى المدينة ظافرا أرسله عليه السلام في مائتي رجل ليعاقب بني مرة بفدك ، وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد ، فساروا حتى اذا كانوا قريبا من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، فاني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمرا فانه لا رأي لمن لا يطاع » ثم آخى بين الجند فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق أحد منكم زميله واياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له : أين صاحبك ؟ فيقول : لا أدري ، فاذا كبرت فكبروا . فلما أحاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد ، واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة .

سرية

وأرسل عليه السلام كعب بن عمير الغفاري الى ذات اطلاح من أرض الشام في خمسة عشر رجلا فوجدوا جمعا كثيرا فدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوا وقاتلوا ، وكانوا اكثر عددا ، فاستشهد المسلمون عن آخرهم الا رئيسهم كعب بن عمير ، فانه نجا وأتى بالخبر الى رسول الله ، فشق عليه وأراد أن يبعث اليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة

مرّ بك ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الحارث بن عمير الازدي

بكتاب الى أمير بصرى من قبل الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمر الغساني فقتله . وفي جمادى الاولى جهز عليه السلام جيشا في ثلاثة آلاف مقاتل واستعمل عليه زيد بن حارثة ليقتص ممن قتلوا رسوله الحارث ، وقال لهم : ان أصيب فالامير جعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبدالله بن رواحة وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به « أغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » . ثم مضوا حتى نزلوا مؤتة من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد جمع لهم جمعا عظيما من الروم والعرب المتنصرة ، ففكر المسلمون في أمرهم وقالوا : نكتب الى رسول الله فنخبره بعدد عدونا ، فاما ان يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره . فقال عبدالله بن رواحة : « يا قوم والله ان الذي تكرهون هو ما خرجتم له ـ خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة ما نقاتل الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هي احدى الحسنيين ، اما الظهور واما الشهادة » فقال الناس : « قد صدق والله ابن رواحة » . فالتقى الجمعان فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول :

يا حبذا الجنَّةُ واقترابُهَا ... طيبةٌ ، وباردٌ شرابُهَا
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُهَا ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُهَا
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُهَا

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه ، فأخذ الراية عبدالله ابن رواحة ، فتقدم ثم تردد بعض التردد ، فقال يخاطب نفسه :

أقسمتُ يـــا نفس لتنزلنّــــهْ طائعـــةً أوْ لا لتُكْـرَهِنّهْ
إنْ أجْلَبَ النّاسُ وشدّوا الرنّهْ مالي أراكِ تكرهينَ الجنّهْ !
قــد طالما كنتِ مطمئنّــــهْ هل أنت إلاّ نُطفةٌ في شنّهْ ؟

ثم أخذ سيفه واقتحم بفرسه المعمعة وقاتل حتى استشهد ، وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون ، وأراد بعض المسلمين الانهزام ، فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم : يُقتلُ الانسانُ مقبلا خيرٌ من أن يقتل مدبرا » فتراجعوا واتفقوا على تأمير خالد بن الوليد ، وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع ، اذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفا ؛ فانه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالا شديدا ، وفي غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا • ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع الى الوراء حتى انحاز الى مؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الامداد تتوالى للمسلمين وخافوا أن يجروهم الى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطـع القتــال •

وقد نعى النبي صلى الله عليه وسلم زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب » ، وكانت عينا رسول الله تذرفان ، ثم قال : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ، وجاءه رجل فقال : يا رسول الله ان نساء جعفر يبكين ، فأمره أن ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن فلم يطعن ! فأمره فذهب ثانيا ثم جاء فقال : والله لقد غلبننا ، فقال له عليه السلام : أحث في أفواههن التراب » •

ولما أقبل الجيش الى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فرّار فررتم في سبيل الله ، : فقال عليه السلام ليسوا فرّارا ، بل هم الكرار وأثنى على خالد في مهارته •

سرية

وفي جمادي الآخرة بلغ رسول الله أن قوما من قضاعة يتجمعون في بلادهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة ، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح في مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عمرو قبل أن يصل الى القوم ، وقد أراد رجال من الجيش ايقاد نار فمنعهم عمرو ، فأنكر عليه عمر ابن الخطاب فقال أبو بكر : انما بعثه رسول الله علينا رئيسا لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامتثل •

ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم ، فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين ، فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا الى المدينة ظافرين • وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال : ان أنا اغتسلت هلكت والله يقول : « وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ » ثم تيمم وصلى ، ثم أمر بالسير حتى اذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته ، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن ايقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنبا ، فسأله عليه السلام عن ذلك فقال : منعتهم من ايقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين ، وصليت جنباً لأن الله يقول : « وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ » وان أنا

اغتسلت هلكت ، فتبسم عليه السلام وأثنى على عمرو خيرا •

سرية

وأرسل صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التي تسكن ساحل البحر ، وزوّد عليه السلام هذا الجيش جرابا من التمر ، فساروا في رجب حتى اذا وصلوا الساحل أقاموا مدّة ينتظرون العدو وقد فني زادهم حتى أكلوا ورق الشجر الى أن تقرحت أشداقهم ، وكان في القوم قيس بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور • وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأنّ قيسا كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه ، فخاف أبو عبيدة أن لا يفي له أبوه بما استدان ،فقال قيس : « أترى سعدا يقضي ديون الناس ويطعم في المجاعة ولا يقضي دينا استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا الى المدينة فقال قيس بن سعد لأبيه : كنت في الجيش فجاعوا ، قال : أنحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : أنحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : أنحر ، قال نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : أنحر ، قال : نهيت •

فتح مكة

كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش عهد يمنع أحد الفريقين من مقاتلة الآخر والاعانة عليه ، فحدث ان بني بكر وهم في عهد قريش حاربوا بني خذاعة وهم في عهد المسلمين والجميع بمكة ، فساعد القرشيون حلفاءهم سرا بالسلاح ، وقاتل معهم من قاتل مستخفيا ، حتى حازوا خزاعة الى الحرم •

فلما تظاهرت قريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، خرج عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من قومه حتى قدموا على رسول الله فأخبروه الخبر ، فقال عليه السلام : والله لامنعنكم مما أمنع نفسي منه ... وكان يرجو قبل ذلك ان يفتح مكة لتدين العرب كلها للمسلمين.

أما قريش فأدركت خطأها وأرسلت أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة ، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد ، حتى اذا جاء المدينة نزل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يا بنية : أرغبت به أم رغبت بي عنه ؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك ، فقال : لقد أصابك يا بنية بعدي شر . ثم خرج من عندها وأتى النبيُّ في المسجد ، وعرض عليه ما جاء له ، فقال له عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد عن ذلك . فقام أبو سفيان وذهب الى أبي بكر فكلمه ان يكلم رسول الله . فقال : ما أنا بفاعل : ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع الى رسول الله ! فوالله لو لم أجد الا الذّر لجاهدتكم به . ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ومعها الحسن بين يديها، فقال : يا علي ، انك أمسّ القوم بي رحما ، واقربهم بي قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لنا الى محمد . قال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه . فالتفت الى فاطمة فقال : يابنة محمد ، هل لك ان تأمري بُنيّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بُنَيّ ذاك ان يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد . قال :

يا أبا الحسن : اني أرى الامور قد اشتدت عليّ فانصحني • فقال علي : والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثمّ الحق بأرضك • قال : أوَ ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا ، والله ما أظن ولكني لا أجد لك غير ذلك •

فرجع ابو سفيان الى قومه ولم يصنع شيئا ، فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة •

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك واخبر الصديق بالوجهة فقال له : يا رسول الله او ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا • ثم استنفر عليه السلام الاعراب الذين حول المدينة وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها ، فدعا مولاه جلّ ذكره وقال : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) •

فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرا وكتب كتابا لقريش يخبرهم بالذي اجمع رسول الله من السير اليهم وأرسله مع جارية لتوصله الى قريش على جعل ، فأتى لرسول الله الخبر من السماء فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها : أخرجي الكتاب ، قالت ما معي كتاب ! فقالوا : لتخرجن الكتاب

أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام: يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، اني كنت حليفا لقريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضاء بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام أما أنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنقه فان الرجل قد نافق ، فقال رسول الله : انه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر ! لعل الله اطلع على من شهد بدرا ، فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم » .

ثم سار النبي في منتصف رمضان في عشرة آلاف مجاهد من المسلمين، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر وصهره عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجه أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضا ، وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بأهله وعياله فأمره أن يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة . ولما وصل عليه السلام مر الظهران قرب مكة ، أمر بايقاد عشرة آلاف نار ، وكان قريش قد بلغهم أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه ؟ لكأنها نيران عرفة ! فقال بديل بن ورقاء:

نيران بني عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم . فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان ، فلما سار قال للعباس : احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر الى المسلمين . فحبسه العباس ، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل عنها ويقول ما لي ولها ، حتى اذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد : يا أبا سفيان اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الذمار ، ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير ابن العوام ، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال عليه السلام: كذب سعد ، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة .

ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون [1] وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدي [2] ، ودخل هو عن أعلاها من كداء ونادى مناديه : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن . واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الاذى فأهدر دمهم وان تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم ارتد وافترى الكذب على رسول الله ، فكان يقول : ان محمدا كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ! ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهبار بن الاسود

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

(٢) كدي كقوي جبل مسفلة مكة على طريق اليمن . وكدا كسحاب جبل بأعلى مكة .

والحارث بن هشام وزهير بن ابي أمية وكعب بن زهير ووحشي قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء الا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم ، وقتل منهم أربعة وعشرين وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة . وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف مانعا ، وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعا لله وشكرا له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل ، وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة ، فاستراح قليلا ثم ساروا وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت وطاف سبعا على راحلته واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة اذ ذاك ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده ويقول :

« جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ وَما يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ثم أمر بهذه الاصنام فأخرجت من البيت الحرام وفيها صورة اسماعيل وابراهيم وفي أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط !!

ثم دخل رسول الله الكعبة وكبر في جوانبها ، ثم خرج الى مقام ابراهيم وصلى فيه ، ثم شرب من زمزم وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة اليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه ، ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل

بكم ؟ قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه السلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم خطب رسول الله خطبة أورد فيها كثيرا من الاحكام وقال :

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

ثم أخذ الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام، فأسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد أبي بكر الصديق وقد فرح الرسول كثيرا باسلامه ، وجاء رجل يرتعد خوفا فقال له عليه السلام : « هون عليك فاني لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

أما الذين أهدر رسول الله دماءهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم : فعبدالله بن سعد بن أبي سرح لجأ الى أخيه من الرضاع عثمان ابن عفان وطلب منه أن يستأمن له رسول الله ، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبي وقال : يا رسول الله قد أمنته ، فبايعه ، فأعرض عنه عليه السلام مرارا ثم بايعه ، فلما خرج عثمان وعبدالله قال عليه السلام : عرضت عنه ليقوم اليه أحدكم فيضرب عنقه ، فقالوا : هلا أشرت الينا

فقال : لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الاعين . وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب ، فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد أسلمت قبل الفتح وقد أخذت له أمانا من رسول الله فلحقته ، وقد أراد أن يركب البحر فقالت : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم لا تهلك نفسك واني قد استأمنته لك ، فرجع . ولما رآه عليه السلام وثب قائما فرحا به وقال : مرحبا بمن جاءنا مهاجرا مسلما . ثم أسلم رضي الله عنه وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه اياها فاستغفر له ، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الاسلام . وأما هبار بن الأسود فهرب واختفى ، حتى اذا كان رسول الله بالجعرانة بين مكة والطائف جاءه مسلما وقال : يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل ، فقال عليه السلام : قد عفوت عنك . وأما الحارث ابن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومي فأجارتهما أم هانىء بنت أبي طالب فأجاز عليه السلام جوارها ، ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلما قال له : « الحمد لله الذي هداك ، ما كان مثلك يجهل الاسلام » . وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة . . وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي وقال : يا نبي الله ان صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه فانك قد أمنت الأحمر والأسود . فقال عليه السلام : أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال : أعطني علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير حتى اذا لقي صفوان قال له : فداك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه

شرفك وملكه ملكك ، فقال صفوان : اني أخافه على نفسي ، قـــال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان فرجع الى رسول الله وقال له : ان هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق ، قال : أمهلنـــي بالخيار شهرين ؛ قال أربعة أشهر ، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن اسلامه •
وأما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت وجاءت الى رسول الله فرحب بها وقالت له : « والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الي أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الي أن يعزوا من أهل خبائك » •

وأما وحشي بن حرب الحبشي ، قاتل حمزة عم النبي في أحد ، فقد وفد على الرسول مع وفد أهل الطائف بعد أخذها ، وأسلـم ، وحسن اسلامه ، ثم شارك في قتل مسيلمة الكذاب ، وزعم انه رماه بحربته التي قتل بها حمزة ، وكان يقول : قتلت بحربتي هذه خير الناس وشر الناس •

بيعة النساء

ولما فرغ النبي من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعهـا بحمزة ، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله : تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتـان تفترينه بين ايديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف فوافقن ، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب : بايعهن ، واستغفر لهن ، فبايعهن عمر •

وأقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوما يقصر فيهـا الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقه كل يوم درهما فكان عتاب رضي الله عنه يقول : لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم •

العزى

وفي الخامس من مقامه عليه السلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارسا لهدم هيكل العزى وهي أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه اليها خالد وهدمها •

سواع

وأرسل عليه السلام عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب اليه وهدمه •

مناة

وبعث سعد بن زيد الاشهلي في عشرين فارسا لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه الى قديد فتوجهوا اليها وهدموها •

غزوة حنين

سمعت هوازن بخروج رسول الله من المدينة ، وظنوا انه يريدهم ، فاجتمعوا له ، فلما أتاهم أنه قد اتجه الى مكة ، وانه قد فتح الله عليه بها خافوا ان يسير اليهم ويغزوهم ، فاجتمع اشراف هوازن وثقيف وقالوا : قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا فأجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك بن عوف النضري فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة ، فأمرهم مالك بأن يأخذوا نساءهم وأموالهم معهم ليدافع كل رجل عن أهله وماله فلا ينهزم •

وكان في القوم دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، ولتقدم سنه ، لم يكن له في هذه الحرب الا الرأي ، فلما علم بذلك سأل مالكا عن السبب فقال : سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فقال دريد : وهل يرد المنهزم شيء ؟ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفا وراء المقاتلة ووراءهن الابل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبر هذه الغارة ، خرج في اثني عشر ألف مقاتل منهم ألفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة ، وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم ، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين ، منهم صفوان بن أمية وكان قد ذكر للرسول ان عنده أدراعا وسلاحا ، فأرسل اليه فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ قال : عارية مضمونة حتى نؤديها اليك . قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ولما استقبل المسلمون وادي حنين ، انحدروا في واد من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوهم الى هذا الوادي فكمنوا لهم في شعابه وأجنابه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا ، فما راعهم الا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد واستقبلوهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، فلوى المسلمون أعنة خيلهم متقهقرين لا يلوي أحد على أحد . ولما وصلوا الى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته في ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والانصار منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو

سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومعتب بن أبي لهب ، وكان العباس آخذا بلجام البغلة وأبو سفيان آخذا بالركاب، وكان عليه السلام ينادي : الي أيها الناس ، ولا يلوي عليه أحد ، وضاقت بالمنهزمين الارض بما رحبت • أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الأدبار ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه : « اسكت فض الله فاك ! والله لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن » • ومر عليه رجل من قريش وهو يقول : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدا • فغضب صفوان وقال : ويلك أتبشرني بظهور الأعراب ؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذلك الرجل : كونهم لا يجبرونها ابدا ليس بيدك الامر بيد الله ، ليس الى محمد منه شيء ان أديل عليه اليوم فان العاقبة له غدا » ، فقال سهيل بن عمرو : والله ان عهدك بخلافه لحديث ، فقال له : يا أبا يزيد انا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجرا لا يضر ولا ينفع • وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة ، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس — وكان جهوري الصوت : يا عباس ، اصرخ يا معشر الانصار ، يا أصحاب السمرة ، فنادى العباس ، يا معشر الانصار ، يا أصحاب السمرة ، فأجابوا : لبيك ! لبيك • ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى اجتمع الى النبي مائة رجل منهم استقبلوا الناس فاقتتلوا ،

وأشرف رسول الله في ركائبه فنظر الى مجتلد القوم ، فقـال : حمي الوطيس . فانتكث فتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيرا من المحاربين ، وهرب من هرب ، وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة ، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين .

ثم أمر عليه السلام بجمع السبي والغنائم ، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة . أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق : فرقـة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة وفرقة عسكرت بأوطاس (١) .

سرية

فأرسل عليه السلام في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الاشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى سلمة بن دريد ابا عامر بسهم فقتله ، فولى الناس أبا موسى الاشعري ، فقاتلهـم حتى فتح الله عليه وهزمهم ورجع ظافرا منصورا . فقال رسول الله : اللهم اغفر لابي عامر واجعله من اعلى أمتي في الجنة ، ودعا لابي موسى ايضا .

غزوة الطائف

لما قدم المنهزمون من ثقيف ومن انضم اليهم من غيرهم الى الطائف اغلقوا عليهم مدينتهم واستحصروا وجمعوا ما يحتاجون اليه ، فسار اليهم

---

(١) واد بديار هوازن .

النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ، ومر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النصري فأمر بهدمه ، ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل اليه ، أن اخرج والا حرقنا عليك بستانك ، فامتنع الرجل ، فأمر عليه السلام بحرقه •

ولما وصل المسلمون الى الطائف وجدوا الاعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم ، فعسكر المسلمون قرب الحصن فرماهم المشركون بالنبل رميا شديدا حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبدالله بن أبي بكر ، وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه ، ومنهم أبو سفيان بن حرب ففقئت عينه ، وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلا من المسلمين • ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع الى محل مسجده الذي بالطائف وضرب لام سلمة وزينب قبتان هناك ، واستمر الحصار ثمانية عشر يوما • ثم رماهم بالمنجنيق ، ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين (١) لينقبوا الحصن ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم • فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم ، فقطع المسلمون فيها قطعا ذريعا ، فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم ، فقال : أدعها لله وللرحم ، ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن ، فخرج اليه بضعة عشر رجلا • ولما رأى عليه السلام أن تمنع ثقيف شديد وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام • فقال : يا رسول الله ، ثعلب في حجر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك ، فأمر عليه السلام بالرحيل ، وطلب

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها •

منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال : (اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين) •

تقسيم السبي

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتال والحصار ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المسلمين حتى نزل الجعرانة ، حيث ترك السبي ، فأحصاه وخمسه وأعطى منه شيئا كثيرا لأناس ضعف اسلامهم يتألفهم بذلك وأعطى أناسا لم يسلموا ليحبب اليهم الاسلام ، ومن الأولين أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الابل ، وكذلك ابناه معاوية ويزيد ، فقال له : بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب •

وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الابل ، وكذلك الاقرع بن حابس والعباس بن مرداس ، وأعطى صفوان بن أمية شعبا مملوءا نعما وشاه كان رآه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هو لك • فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ، وكان سبب اسلامه •

ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد أن اجتمع اليه الاعراب وصاروا يقولون له : اقسم علينا ، حتى ألجأوه الى شجره فتعلق رداؤه فقال : (ردوا ردائي أيها الناس فوالله ان كان لي شجر تهامة نعما لقبسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كدودا) •

ثم قام الى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : (أيها الناس ، والله مالي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم ،

فأدوا الخياط والمخيط فان الغلول (١) يكون على أهله عارا وشنارا ونارا يوم القيامة) ، فصار كل من أخذ شيئا من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيدا ، ثم شرع يقسم فأصاب الرجل أربعة من الابل وأربعون شـــاة والفارس ثلاثة أمثال ذلك ، فقال رجل من المنافقين : « هذه قسمة ما أريد بها وجه الله » فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه وقال : (ويحك من يعدل اذا لم أعدل ؟!) ، فقال له عمر وخالد بن الوليد : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه ، فقال : لا ! لعله أن يكون يصلي ، فقال خالد : وكم مـــن مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! فقال صلى الله عليه وسلم : « اني لم اومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم » .

ولما أعطى رسول الله ما اعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ولم يكن في الانصار منها شيء ، غضب بعضهم وكثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي رسول الله قومه ! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في انفسهم لمـــا صنعت في هذا الفيء الذي اصبت ، فقد قسمته في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الانصار منها شيء » ، قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله مـــا أنا الا مـــن قومي . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فخرج سعـــد فجمع الانصار في تلك الحظيرة ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لـــك هذا الحي من الانصار .

فأتاهم رسول الله ، فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الانصار ، ما قالة بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها علي فـــي

---

(١) الاختلاس من الغنيمة .

انفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ، واعداء فألف الله بين قلوبكم بي ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل • ثم قال عليه السلام : الا تجيبونني يا معشر الانصار ! قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل • قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وقائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم في لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ! الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وأبناء أبناء الانصار ! »

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا •

وفود هوازن

ولم تمض بضعة عشرة ليلة حتى وفد عليه زهير بن صرد في جماعة من هوازن يكلمونه في أمر النسوة اللائي سباهن المسلمون في الحرب • فقالوا : يا رسول الله ان فيمن أصبتم الامهات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام ونرغب الى الله واليك يا رسول الله ، وقال زهير ان في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن فان كثيرين يكفلنك ، ثم قال أبياتا يستعطفه بها :

امنن علينا رسول الله في كرم ... فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... اذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

انا لنشكر للنعماء ان كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخرُ
انا نؤمل عفوا منك نلبسه هدى البرية أن تعفو وتنتصرُ
فالبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك ان العفو مشتهرُ

فقال صلى الله عليه وسلم : ان أحب الحديث الي أصدقه ، فاختاروا احدى الطائفتين اما السبي واما المال ، وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، فقالوا : ما كنا نعدل بالاحساب شيئا ، أردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ولا تتكلم في شاة ولا بعير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فاذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا : نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله بعد أن تظهروا اسلامكم وتقولوا نحن اخوانكم في الدين ، ففعلوا . فقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه : أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين واني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نطعيه اياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل ، فقال المهاجرون والانصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ، وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس وعيينة ابن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضا وأمر صلى الله عليه وسلم بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبدالله بن أمية . فقال له الوفد : أولئك سادتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : انما أريد بهم الخير : ثم سأل عن مالك فقالوا هرب مع ثقيف ، فقال : اخبروه أنه ان جاءني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل ، فلما بلغ ذلك مالكا نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله ، واستعمله عليه السلام على من أسلم من هوازن .

اسلام كعب بن زهير

كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر عالي الطبقة ، من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية ، ولما ظهر الاسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلم وأقام يشبب بنساء المسلمين ، فاهدر النبي دمه وقال : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب اليه أخوه بجير يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه ، فان كانت لك حاجة فطر الى رسول الله فانه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وان انت لم تفعل فانج الى نجائك من الارض .

فلما بلغه كتاب أخيه هذا أتى الى بني مزينة قبيلته لتجيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبت عليه ذلك ، فحينئذ ضاقت عليه الارض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان يعاديه فقالوا : هو مقتول . فلم يجد بدا من القدوم على رسول الله ، فأقبل حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة ، من جهينة ، فغدا به الى رسول الله حين صلى الصبح ، وأشار الى رسول الله ، وقال له : هذا هو : فقم اليه فاستأمنه .

فقام اليه ، ووضع يده في يده ــ وكان رسول الله لا يعرفه ــ فقال : يا رسول الله ، ان كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه ان أنا جئتك به ؟ فقال عليه السلام : نعم . قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

فوثب عليه رجل من الانصار فقال : يا رسول الله ، دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال عليه السلام : دعه عنك ، فانه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه .

عند ذاك اندفع كعب ينشده لاميته المشهورة التي مطلعها :

« بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول »

عمرة الجعرانة

ثم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته ، وكانت اقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمنا مطمئنا حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة •

وغزوة حنين هي التي فرق الله بها جموع الشرك وأدال دولته وأفقد سراة أهله ، فان هوازن لم تترك وراءها رجلا تمكنه الحرب الاساقته ولم تترك لها بعيرا ولا شاة الا جاءت به معها ، فأراد الله اعزاز الاسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم ، فانكسرت حدة المشركين ولم يبق من يمانع أو يدافع ، ولذلك يمكننا أن نقول ان انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب ، فلم يبق فيهم الا فئات قليلة يسوقهم الطيش الى شهر السلاح ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة •

سرية

ولما رجع عليه السلام الى المدينة أرسل قيس بن سعد في أربعمائة ليدعو صداء (قبيلة تسكن اليمن)الى الاسلام ، فجاء الى رسول الله رجل منهم فقال : يا رسول الله اني جئتك وافدا عمن ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فأمر عليه السلام برد الجيش •

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسة عشر رجلا منهم فنزلوا ضيوفا

على سعد بن عبادة ، ثم بايعوا رسول الله على الاسلام وقالوا : نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الاسلام وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع •

سرية

تصدت بنو تميم لجباة الزكاة فمنعوا بني كعب من أدائها وهم جيرانهم ، فلما علم بذلك رسول الله أرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين فارسا من الاعراب فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلا واحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، فجاء في أثرهم وفد بني تميم فيه عطارد بن حاجب الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم ، فجلسوا ينتظرون الرسول ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جاف : يا محمد اخرج الينا نفاخرك ، فان مدحنا زين وان ذمنا شين • فخرج اليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت وقت الظهر ، فأذّن بلال ودخل النبي للصلاة ، فتعلقوا به يقولون : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نساعرك ونفاخرك ، فقال لهم عليه السلام : ما بشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا ، ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم، وقد مدح عمرو بن الاهتم الزبرقان بن بدر ، فقال انه لمطاع في أنديته سيد في عشيرته ، فقال الزبرقان : حسدني يا رسول الله لشرفي وقد علم أفضل مما قال ، فقال عمرو : انه لزمن المروءة ضيق العطن لئيم الخال » فرئي الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولي عمرو ، فقال : يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الثانية ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت • فقال عليه السلام ان من البيان لسحرا • ثم أسلموا فرد النبي عليه السلام عليهم أسراهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين •

سرية

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط لجباية الزكاة من بني المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين سلاحهم احتفالا بقدومه ومعهم ابل الصدقة ، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية ، فرجع مسرعا الى المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر ، فسار اليهم في عسكره خفية حتى اذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح ، فأتاهم خالد فلم ير منهم الا طاعة ، فرجع وأخبر الرسول ، فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات ، وفي الوليد نزل في أوائل الحجرات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ».

سرية

بلغ رسول الله أن جمعا من الحبشة رآهم أهل جدة في مراكبهم يريدون الاغارة عليها ، فأرسل لهم علقمة بن مجزز بن الاعور الكناني المدلجي في ثلاثمائة ، فذهب حتى وصل جدة ونزل في المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ، ولم يلق المسلمون كيدا فرجع علقمة بمن معه . ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا وأمر عليهم عبدالله بن حذافة السهمي ، وكان فيه دعابة ، فأوقد لهم في الطريق نارا وقال لهم : ألستم مأمورين بطاعتي ؟ قالوا : نعم ، قال : عزمت عليكم الا ما تواثبتم في هذه النار ،

فقال بعضهم : ما أسلمنا الا فرارا من النار ، وهمّ بذلك بعضهم فمنعهم عبدالله • وقال : كنت مازحا ! فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق •

السنة التاسعة

سرية

كان لطيء صنم يقال له الفلس، وكانوا يعبدونه ويهدون اليه ويعترون عنده عتائرهم ، وفي ربيع الاول أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في خمسين فارسا لهدم الفلس فسار اليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه سفانة بنت حاتم طيء • ولما رجع علي الى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمن عليها ، فأجابها لانه كان من سننه أن يكرم الكرام ، فدعت له ، وكان من دعائها : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مراضعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم الا وجعلك سببا لردها عليه •

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سببا في اسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فر الى الشام عندما رأى الرايات الاسلامية قاصدة بلاده • وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت اليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم ، فقال لها : ما ترين في أمر هذا الرجل ؟ فقال أرى أن تلحق به سريعا فان يكن نبيا فللسابق اليه فضل ، وان يكن ملكا فأنت أنت • قال : والله هذا هو الرأي •

فخرج عدي حتى جاء المدينة ولقي رسول الله فقال عليه السلام :

من الرجل ؟ قال عدي بن حاتم ، فأخذه الى بيته ، وبينما هما يمشيان اذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها ؛ فقال عدي : والله ما هو بملك • ثم مضى رسول الله حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفا فقدمها الى عدي وقال : اجلس على هذه • فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الأرض ، ثم قال يا عدي : أسلم تسلم ، قالها ثلاثا ، فقال عدي اني على دين ــ وكان نصرانيا ــ فقال له عليه السلام • أنا أعلم بدينك منك ، فقال عدي : أأنت أعلم بديني مني ؟ قال نعم • ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعا لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء ، كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم • ثم قال يا عدي : انما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى ، تقول انما أتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أرها وقد سمعت بها ، قال: فوالله ليتمن هذا الامر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ؛ وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم • فأسلم عدي وعاش حتى رأى كل ما اخبره به النبي صلى الله عليه وسلم •

غزوة تبوك

اتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ان نصارى العرب قد اجتمعوا مع جند الروم لمحاربته ، ووصلت مقدمتهم الى البلقاء ، أرض بالشام ، فأمر

أصحابه بالتهيؤ لغزوهم ، في وقت كان الناس فيه مجدبين والحر بالغ غايتــه ، وكان قلما يخرج في غزوة الا ورى بغيرها ليعمي الأخبار على العدو الا في هذه الغزوة ، فانه أخبر بمقصده لبعد الشقة ولشدة العدو ليأخذ الناس عدتهم لذلك ، وبعث الى مكة وقبائل الاعراب يستنفرهم لذلك وحث الموسرين على تجهيز المعسرين ، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرسا • فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ارض عن عثمان فاني راض عنه • وخرج أبو بكر عن جميع ماله وهو أربعة آلاف درهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : هلا أبقيت لأهلك شيئا ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجــاء عمر ابن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس وطلحة بمال كثير • وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقا من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وجــاءه صلى الله عليه وسلم سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم • فقال : لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون • فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين •

ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفا ، وولى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهله علي بن أبي طالب ، وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبدالله بن أبي وقال : يغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد !! يحسب محمد أن قتال بني الاصفر معه اللعب ؟ والله لكأني أنظر الى أصحابه مقرنين في الحبــال • واجتمــع جماعة منهم فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الارجاف ، فبلغه ذلك ، فأرسل اليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا ، فقالوا انما كنا

نخوض ونلعب • وجاء اليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج فقالـوا : يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لانـا لا نأمن من نسـاء بني الاصفر ، وجـاء اليه المعذرون من الاعراب وهم أصحاب الاعذار من ضعف أو قلة ليؤذن لهم فأذن لهم ، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم ، وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في اسلامهم ، منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة • ولما خلف صلى الله عليه وسلم عليا قال المنافقون : قد استثقله فتركه ، فأسرع الى رسول الله وشكا له ما سمع ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى •

ثم سار صلى الله عليه وسلم بالجيش وأعطى لواءه الاعظم أبـا بكر الصديق ، وفرق الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين ، وأسيـد بن حضير راية الاوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج ، ولمـا مر الجيش بالحجر وهي ديار ثمود قال صلى الله عليه وسلم لاصحابه : « لا تدخلوا ديار الذين ظلموا الا وأنتم باكون » ليشعر قلوبهم رهبة الله ، وكـان مستعملا على حرس الجيش عباد بن بشر ، وكان أبو بكر يصلي بالجيش ولما وصلوا الى تبوك وكانت أرضا لا عمارية فيها ، قال الرسول لمعاذ بن جبل : يوشك ان طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليء بساتين ، وقد كان • ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاما وكان يوما شديد الحر ، فلما نظر ذلك قال : يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيـأ وامرأة حسناء ! ما هذا بالنصف • ثم قال : والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لي زادا ، ففعلتا • ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه ولحق برسول الله •

ولما انتهى رسول الله الى تبوك لم يلق حربا وصالح أهلها وقفل راجعا ، وفي عودته أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء (١) وأهل أذرح (٢) وأهل ميناء ، فصالح يوحنا رسول الله على اعطاء الجزية ولم يسلم ، وكتب له الرسول كتابا هذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فانه لا يجوز ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء ، انهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارها . ثم ان الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك الى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال له عمر : ان كنت أمرت بالسير فسر . فقال عليه السلام : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر ، فقال : يا رسول الله ان للروم جموعا كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام ، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا ، فتبع عليه السلام مشورته ، ثم انصرف قافلا الى المدينة .

---

(١) قرية في جنوب الشام .
(٢) مدينة تلقاء السراة .

هدم مسجد الضرار

ولما كان عليه السلام على مقربة من المدينة بلغه خبر مسجد الضرار ، وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين ، وجاء جماعة منهم الى الرسول طالبين منه أن يصلي لهم فيه ، فسألهم عن سبب بنائه ، فحلفوا بالله ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون ، فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا اليه ويهدموه ففعلوا •

هذا ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذبا فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم الى الله واستغفر لهم •

الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم ، فلما دخل عليه كعب تبسم تبسم الغضب وقال: ما خلفك ؟ فقال يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ؛ ولقد أوتيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي فيه ، ولئن حدثتك حديث صدق تغضب علي فيه ، اني لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لي من عذر • فقال عليه السلام : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك • وقال صاحباه مثل قوله ، فقال لهما عليه السلام كما قال لكعب ونهى المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها •

ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى ، فتلقاهم الناس أفواجا أفواجا يهنئونهم بتوبة الله . فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسرورا فقال : أبشر يا كعب بخير يوم يسر عليك منذ ولدتك أمك ، فقال : من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال بل من عندالله . فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . ثم قرأ عليه السلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحباه في سورة براءة : « وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

وفود ثقيف

وبعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك وفد عليه وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع أثره عروة ابن مسعود الثقفي — وكان كبيرا في قومه — حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع الى قومه ويدعوهم الى الاسلام ، فقال له انهم قاتلوك ، فقال : يا رسول الله أنا أحب اليهم من أبكارهم ، فخرج الى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيهم محببا مطاعا ، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه ، وقيل انه المراد بقوله تعالى : « عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ » ، وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا انه لا طاقة لهم بحرب

من حولهم من العرب ، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلا منهم يكلمه ، وطلبوا من عبد ياليل ابن عمرو أن يكون ذلك الرجل ، فأبى وقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجلا ، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم ، فخرجوا متوجهين الى المدينة ، ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا ، وكانوا يغدون الى رسول الله كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سنا عثمان ابن أبي العاص ، فكان اذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن ، واذا رآه نائما استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئا كثيرا من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه ، ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الاسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين •وكتب له كتابا من جملته « بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد النبي رسول الله الى المؤمنين ، ان عضاه وج ، وصيده لا يعضد ومن وجد يفعل شيئا من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه » •

ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهرا حتى يدخل الاسلام في قلوب القوم ولا يرتاح السفهاء من النساء من هدمه ، فرضي بذلك عليه السلام ، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم : أنا أعلمكم بثقيف ، اكتموا عنهم اسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمدا طلب أمورا عظيمة أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم الطاغية وأن تترك الزنا وشرب الخمر والربا ، فلما حلوا بلادهم جاءتهم ثقيف فقال الوفد : جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودان الناس له فعرض علينا أمورا شديدة وذكروا ما تقدم • فقالوا والله لا نطيعه أبدا ، فقالوا لهم : أصلحوا سلاحكم ورموا حصونكم واستعدوا للقتال ، فأجابوا واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم فقالوا : والله ما لنا بحربه

من طاقة، ارجعوا اليه وأعطوه ما سأل ، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا : لم كتمتم علينا ذلك ؟ قالوا حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان ، فأسلموا .

هدم اللات

اللات بالطائف اشهر الهات الجزيرة العربية في الجاهلية ، وكانت صخرة مربعة ، سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها . فلم تزل كذلك حتى اسلمت ثقيف فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة الثقفي فهدمها وحرقها بالنار .

وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرقت ، ينهي ثقيفا عن العود اليها والغضب لها :

لا تنصروا اللاتَ إنَّ اللهَ مُهلِكُها
وكيف نَصْرُكُمْ مَنْ ليس ينتصرُ
إن التي حُرِّقت بالنار فاشتعلت
ولم تقاتل لدى أحجارها ، هَدَرُ
إن الرسول متى يَنْزِلْ بساحتِكُمْ
يَظْعَنْ ، وليس بها من أهلها بشرُ

حج أبي بكر

وفي اواخر ذي القعدة من السنة التاسعة أرسل عليه السلام أبا بكر الصديق ليحج بالناس ، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدي

عشرون بدنة أهداها رسول الله ، وساق أبو بكر خمس بدنات ، ولما سار نزل على رسول الله أوائل سورة براءة (1) فأرسل بها عليا ليبلغها الناس في يوم الحج الاكبر ، وقال : لا يبلغ عني الا رجل مني . فلحق أبا بكر في الطريق فسأله الصديق : هل استعملك رسول الله على الحج ؟ قال لا ، ولكن بعثني أقرأ أو أتلو براءة على الناس . فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علي ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وامهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الارض كيف شاءوا واتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم ،ثم نادى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما .

وفاة عبدالله بن أبي

أبو الحباب عبدالله بن ابي بن مالك بن الحارس بن عبيد الخزرجي ، المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لابيه ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم ، ورأس المنافقين في الاسلام . أظهر الاسلام بعد وقعة بدر ، تقية ، ولما تهيأ النبي صلى الله عليه وسلم لوقعة أحد ، انخذل أبي وكان معه ثلاثمائة رجل ، فعاد بهم الى المدينة ، وفعل ذلك يوم التهيؤ لغزوة تبوك . وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلما سمع بسيئة نشرها . ولما مات في ذي القعدة من السنة التاسعة تقدم النبي صلى الله عليه وسلم وصلى عليه ، ولم يكن ذلك من رأي عمر بن الخطاب، وانما فعل الرسول ذلك تطييبا لقلب ولده عبدالله بن عبدالله وتأليفا

(1) سورة التوبة وهي مائة وتسع وعشرون آية .

لقلوب الخزرج لمكانة عبدالله بن أبي فيهم ، وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين •

وفاة أم كلثوم
رضي الله عنها

وفي هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما •

السنة العاشرة

سرية

وفي ربيع الآخر في هذه السنة أرسل عليه السلام خالد بن الوليد في جنود لبني عبد المدان بنجران من أرض اليمن ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاث مرات ، فان أبوا قاتلهم ، فلما قدم اليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون الى الاسلام ويقولون : أسلموا تسلموا ، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا •

فأقام خالد بينهم يعلمهم الاسلام والقرآن ، وكتب الى رسول الله بذلك ، فأرسل اليه أن يقدم بوفدهم ففعل • وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا كنا تجتمع ولا تتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال صدقتم ، وأمر عليهم زيد ابن حصين •

سرية

وأرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في جمع الى بني مذحج باليمن وقال : « سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى قول : لا اله الا الله ، فان قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ، ولئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس • ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك »، فسار في رمضان ، فلما انتهى اليهم لقي جموعهم ، فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل ، فصف علي أصحابه وأمرهم بالقتال ، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلا ، ثم لحقهم ودعاهم الى الاسلام فاسلموا وأخذ الزكاة منهم • ثم رجع علي الى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع •

بعث العمال على اليمن

وبعث النبي عليه السلام الى اليمن عمالا من قبله ، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن [1] ، وبعث أبا موسى الاشعري على الكورة السفلى، ووصاهما صلى الله عليه وسلم بقوله: «يَسِّرا ولا تُعَسِّرا وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا » وقال لمعاذ : « انك ستأتي قوما أهل كتاب فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فان أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ،فان أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك ، فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » •

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ، أما أبو موسى فقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ٠

حجة الوداع

حَجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس في السنة العاشرة من الهجرة حجة ودّع فيها المسلمين ولم يحج غيرها ، وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي الحجة وولى على المدينة سماك بن خرشه المعروف بابي دجانة الانصاري ، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفا ، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبى فقال : لَبَّيكَ اللهم لَبَّيك لا شريك لك ، لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ٠ ولم يزل صلى الله عليه وسلم سائرا حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهي ثنية كداء ٠ ولما رأى البيت قال : اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ثم طاف بالبيت سبعا واستلم الحجر الاسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا راكبا على راحلته وكان اذا صعد الصفا يقول : لا اله الا الله ، الله أكبر لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ٠ وفي الثامن من ذي الحجة توجه الى منى فبات بها ٠

خطبة الوداع

وفي اليوم التاسع من الشهر المذكور توجه الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة المشهورة التي بين فيها الدين كله أسه وفرعه ، وهي :

الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور

أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدالله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله •

أوصيكم عبادالله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير •

أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا •

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد • فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، ان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وان دماء الجاهلية موضوعة وأول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية • والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير • فمن زاد فهو من أهل الجاهلية ، أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم •

أيها الناس ان النسيء [1] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه

---

(١) أيام النسيء هي أيام كان يضيفها العرب على شهور السنة الهلالية لتوافق السنة الشمسية ، وانما اضطرهم الى ذلك أن مصالحهم المادية كانت تتعطل بسبب وقوع الاشهر الحرم في مواسمها فأرادوا ان لا توافق اشهرهم الحرم مواسم مصالحهم فاحتالوا على ذلك باضافة ايام فيآخر كل سنة هلالية لتوافق السنة الشمسية فلا تتغير مثلها .

عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرّم الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وان عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض ، منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ، ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن (١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

---

(١) العضل : هو الحبس والتضييق .

أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر • من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله » •

وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً(١) » .

ثم أدى عليه الصلاة والسلام مناسك الحج من رمي الجمار والنحر والحلق والطواف ، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل الى المدينة ، ولما رآها كبر ثلاثا وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده •

الوفود

في السنة التاسعة والعاشرة من الهجرة كان وفود العرب متواصلا على رسول الله ليبايعوه على الاسلام أو على الجزية ، وكانوا يقدمون أفواجا، ومن هذه الوفود وفد نصارى نجران ، وكانوا ستين راكبا دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بالذهب ، ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يقبل البسط وقبل المسوح • ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للاسلام فأبوا وقالوا

(١) سورة المائدة ــ الآية ٣ •

كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه السلام : يمنعكم من الاسلام ثـــلاث ، عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل الله في ذلك في سورة آل عمران :

« إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَــلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وليظهر الله لهم أنهم في شك من أمرهم أنزل « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدُ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَــلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » .

فدعاهم صلى الله عليه وسلم لذلك فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية وهي ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب مع كل حلة أوقية من ذهب ، ثم قالوا أرسل معنا أمينا ، فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ، وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة .

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة ، بينما رسول الله مع أصحابه متكئا جاءهم رجل من أهل البادية ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه عليه فدنا منه وقال : اني سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد [1] علي فـي نفسك ، فقال : سل ما بدا لك ، فقال أنشدك بالله : آلله أرسلك الى الناس كلهم ؟ فقال نعم ، فقال أنشدك بالله : آلله أمرك ان تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال اللهم نعم، قال أنشدك بالله : آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرا ؟ قال اللهم نعم ، قال أنشدك بالله : آلله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا ؟ قال اللهم نعم ، قال فاني

(١) أي لا تغضب .

قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة ، وأما هذهالهناة فوالله ان كنا لنتنزه عنها في الجاهلية . ولما ولى قال عليه السلام : فقه الرجل . ثم ذهب ضمام الى قومه ودعاهم الى الاسلام وترك عبادة الاوثان فأسلموا كلهم .

ومن الوفود وفد عبد القيس ، وكان من خبرهم أن الرسول كان جالسا بين أصحابه يوما فقال لهم : سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق لم يكرهوا على الاسلام قد أنضوا الركائب وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس . فلما أتوا ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا الى رسول الله يسلمون عليه ، وكان فيهم عبدالله بن عوف الاشج وكان أصغرهم سنا ، فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما ثم جاء يمشي هونا حتى سلم على رسول الله ، وكان عبدالله رجلا دميما ففطن لنظر الرسول الى دمامته ، فقال يا رسول الله : انه لا يستقي في مسوك جلود الرجال ، وانما الرجل باصغريه قلبه ولسانه ، فقال صلى الله عليه وسلم : ان فيك خلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والاناة .
وقد قال صلى الله عليه وسلم لهذا الوفد : مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا : يا رسول الله انا نأتيك من شقة بعيدة (١) وانه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وانا لا نصل اليك الا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل ، فقال ، آمركم بالايمان بالله . أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن الدباء (١)

---

(١) كانت ديارهم بساحل الخليج العربي وهي ديار ربيعة ، وبينهم وبين الحجاز أرض نجد .

(١) القرع

والحنتم [1] والنقير [2] والمزفت [3] ، والمراد بذلك ما ينبذ في هـــذه الاواني • فقال الاشج : يا رسول الله ان أرضنا ثقيلة وخمة وانا اذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا ، فرخص لنا في مثل هذه وأشار الى يده ، فأومأ عليه السلام بكفيه وقال : يا أشج ان رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه ، وفرج بين يديه وبسطها ، حتى اذا ثمل أحدكم من شرابه قام الى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف • وانما خص عليه السلام نهيهم بما ذكر لكثرة الاشربة بينهم •

وقدم وفد بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي ، المعروف بمسيلمة الكذاب ، وكان مسيملة يقول : ان جعل لي الامر من بعده اتبعته ، فأقبل عليه السلام ومعه قيس بن شماس وفي يد رسول الله قطعة من جريد ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال : ان سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، واني لأراك الذي منه رأيت • وكان عليه السلام قد رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما ، فأوحى الله اليه أن انفخهما فنفخهما فطارا ، فأولهما صلى الله عليه وسلم كذابين يخرجان من بعده • فكان مسيلمة أحدهما والثاني عبهلة بن كعب بن عوف العنسي المعروف بالاسود العنسي الذي أسلم لما اسلمت اليمن ثم ارتد في أيام النبي وادعى النبوة • وقد قتل قبل وفاة النبي بشهر واحد • وقد أسلم بنو حنيفة •

وقدم وفد طيء وفيهم زيد الخيل بن مهلهل الطائي أحد ابطال الجاهلية رئيسهم ، فلما انتهوا الى النبي صلى الله عليه وسلم كلمهم وعرض عليهم

---

(١) هو جرار مدهونة بدهان أخضر

(٢) هو أصل النخلة ينقر .

(٣) ما طلى بالزفت .

الاسلام فأسلموا وحسن اسلامهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في حق زيد : ما وصف لي رجل من العرب الا رأيته دون ما وصف لي الا زيد الخيل ، وسماه صلى الله عليه وسلم « زيد الخير » .

وقدم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس أمير كندة في الجاهلية والاسلام . ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئا وقالوا أخبرنا عما خبأناه لك . فقال : سبحان الله انما يفعل ذلك بالكاهن ، وان الكاهن والتكهن في النار . ثم قال : ان الله بعثني بالحق وأنزل علي كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه . فتلا عليه السلام :

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ، إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ » . ثم سكت وسكن ، ودموعه تجري على لحيته فقالوا : إنا نراك تبكي ؛ أفمن مخافة من أرسلك تبكي ؟ قال : إن خشيتي منه أبكتني ، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ، إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً » . ثم قال لهم عليه السلام : ألم تسلموا ؟ قالوا بلى ، قال : ما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟ فعند ذلك شقوه وألقوه .

ومنهم وفد الأزد ورئيسهم صرد بن عبدالله الأزدي فأسلموا ، فأمره رسول الله على من أسلم من قومه وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك .

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم الحارث بن عبد كلال والنعمان ومعافر وهمدان وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم • (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال والى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان، أما بعـد : فاني أحمد الله اليكم الذي لا اله الا هو ، أما بعد ، فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقيناه بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكـاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهـم النبي وصفيه ومـا كتب على المؤمنين من الصدقة • أما بعد فان محمدا النبي الى زرعة بن ذي يزن اذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرا معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكـم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي وان أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن الا راضيا ، أما بعد فان محمدا يشهد أن لا اله الا الله وأنه عبده ورسوله ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت من المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خـيرا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركـم وان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته انما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وان مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) •

وقدم على رسول الله صلى اله عليه وسلم وفد همدان وفيهم مالك بن نمط بن قيس الهمداني ، وكان شاعرا من رؤساء همدان ، فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك وعليهم مقطعات الحبرات اليمنية والعمائم العدنية ،

وقد أنشد مالك لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

حلفت برب الراقصات الى منى   صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق   رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها   أشد على أعدائه من محمد

وقد استعمله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وقد قال الرسول في حق همدان : نعم الحي همدان ما أسرعها الى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تجيب قبيلة من كندة ــ وعددهم ثلاثة عشر رجلا منهم ، معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم ، فسر بهم عليه السلام واكرمهم وأحسن وفادتهم ، وقالوا : يا رسول الله انا سقنا اليك حق الله في أموالنا ، فقال عليه السلام : « ردوها فاقسموها على فقرائكم » فقالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك الا بما فضل عن فقرائنا ، قال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا . فقال عليه السلام : ان الهدى بيد الله ، فمن أراد به خيرا شرح صدره للايمان .

وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد صلى الله عليه وسلم رغبة فيهم ، ثم أرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم : ما يعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا اياه وما رد علينا . ثم جاءوا الى رسول الله فودعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود ثم قال لهم : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا غلام خلفناه في رحالنا وهو أحدثنا سنا ، قال : فارسلوه الينا . فأرسلوه فأقبل الغلام وقال : يا رسول الله انا من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي . قال : وما حاجتك ؟ قال:

تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي • فقال عليه السلام : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه •

وقدم على رسول الله وفد بني ثعلبة أربعة منهم مقرين بالاسلام ، فسلموا عليه وقالوا : يا رسول الله ، انا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالاسلاه وقد قيل لنا انك تقول لا اسلام لمن لا هجرة له • فقال عليه السلام : « حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم » ، ثم قال لهم : كيف بلادكم ؟ فقالوا مخصبة ، فقال : الحمد لله • ثم أقاموا في ضيافته أياما ، ولما جاؤوا يودعونه قال لبلال : أجزهم ، فاعطى كل رجل منهم خمس أواق من فضة •

وقدم وفد بني سعد بن هذيم من قضاعة ، قال النعمان منهم : قدمت على رسول الله وفدا في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد غلبة وأذاخ [1] العرب ، والناس صنفان ، اما داخل في الاسلام راغب فيه ،واما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه ، فوجدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد ، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم حتى نلقى رسول الله ونبايعه • ثم انصرف رسول الله فنظر الينا فدعا بنا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا من بني سعد بن هذيم • فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم ، فقال : فهلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك ، فقال عليه السلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون • قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا على الاسلام ، ثم انصرفنا الى رحالنا

---

(١) اي قهرها .

وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا ، فبعث عليه السلام في طلبنا ، فأتي بنا اليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه على الاسلام ، فقلنا يا رسول الله ، انه أصغرنا وانه خادمنا ، فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه . قال النعمان : فكـان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له . ثم أمره رسول الله علينا فكان يؤمنا . ولما أردنا الانصراف أجازنا ورجعنا الى قومنا .

ولما رجع رسول الله من تبوك قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلا مقرين بالاسلام وهم مسنتون ، فسألهم عليه السلام عن بلادهم ، فقال رجل منهم : يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وجاعت عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا الى ربك وليشفع لنا ربـك اليك ، فقال عليه السلام : سبحان الله ، ويلك هذا ، أنا أشفع الى ربي عز وجل فمن ذا الذي يشفع ربنا اليه ! لا اله الا هو العلي العظيم ، وسـع كرسيه السموات والارض فهي تئط [1] من عظمته وجلاله كما يئط الرجل الجديد » ، ثم صعد عليه الصلاة والسلام المنبر ودعا الله عز وجل حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة .

وقدم على رسول الله وفد بني أسد وفيهم ضرار بن الأزور وكان شاعرا ومن الابطال في الجاهلية والاسلام وطليحة بن خويلد الاسدي الذي ادعى النبوة بعد ذلك ، فأسلموا وقالوا : يا رسول الله أتيناك تتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون في الجاهلية من العيافة [2] والكهانة [3] وضرب

(١) أي تصوت .
(٢) هي زجر الطير والتخرص على الغيب .
(٣) هي الاخبار عن الكائنات .

الحصباء ، فنهاهم عن ذلك كله ، ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال : علمه نبي من الانبياء فمن صادف مثل علمه علم • ثم اقاموا أياما وبعد ذلك انصرفوا بعد أن أجيزوا •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني عذرة ووفد بني يلي ووفد بني مرة ووفد خولان وهي قبائل باليمن وقد أمرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد وأداء الامانة وحسن الجوار لمن جاوروا وأن لا يظلموا أحدا فان الظلم ظلمات يوم القيامة • ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم ورجعوا الى قومهم •

وفد بني محارب

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني محارب عام حجة الوداع وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل الى الله ، وجلسوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر ، فعرف رجلا منهم فأمده النظر ، فقال : كأنك يا رسول الله توهمني • قال : لقد رأيتك • فقال الرجل : أي والله ، لقد رأيتني وكلمتني ، وكلمتك بأقبح الكلام ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وانت تطوف على الناس • فقال عليه السلام : نعم • ثم قال الرجل يا رسول الله ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا ابعد عن الاسلام مني ، فأحمد الله الذي ابقاني حتى صدقت بك ، ولقد مات اولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم ، فقال رسول الله : ان هذه القلوب بيد الله عز وجل ، فقال الرجل : يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي اياك • فقال عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله من الكفر • ثم انصرفوا الى أهليهم •

ومن الوفود التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد غسان ووفد بني عبس ووفد النخع ، وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الاخلاق ويجيزهم بما يرضيهم ويعلمهم الايمان والشرائع ليعلموا من وراءهم وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لأظهار الدين بين الاعراب في البوادي . وكان وفد النخع آخر الوفود التي قدمت على رسول الله قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى .

وفاة ابراهيم بن النبي عليه السلام

وفي هذه السنة توفي ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سنة ونصف .

السنة الحادية عشرة

سرية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب زيد بن حارثة ويقدمه ، وكان لا يبعثه في سرية الا امره عليها ، وجعل له الامارة في غزوة مؤتة ، فاستشهد فيها . فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة احدى عشرة جهز عليه السلام جيشا برياسة أسامة بن زيد الى أبني [1] حيث قتل والده وقال له : (سر الى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحا على أهل أبني وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الاخبار ، فان أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الادلاء وقدم العيون

---

(١) محل قريب من مؤتة .

والطلائع معك » • وكان مع اسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والانصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد • ثم عقد عليه السلام لأسامة اللواء وقال له : أغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله • وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين فأبلغ الرسول هذه المقالة ، فغضب غضبا شديدا وخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة ، فقال : أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ؟! وايم الله ان كان لخليقا بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بها ، وان كان لمن أحب الناس الي وأنهما لمظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيرا فانه من خياركم » ثم اتفق ان مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخرج الا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه •

مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرا ــ وكان قد تم ما كلف به وأدى ما اؤتمن عليه وهدي الله به امته ــ شعر عليه السلام بالمرض في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة ، واستمر مريضا ثلاثة عشر يوما كان في خلالها ينتقل الى بيوت أزواجه ، ولما اشتد عليـــه المرض استأذن منهن أن يمرض في بيت عائشة ، فأذن له ، ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال : أهريقوا علي من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج الى الناس فأعهد اليهم » ، فأجلس في مخضب وصب عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم ، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه •

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال : مروا أبا بكر فليصـــل بالناس . ولما رأت الانصار اشتداد وجع الرسول أطافوا بالمسجد فدخل العباس وأعلمه بمكانهم واشفاقهم فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئا على علي والفضل وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر ، وثار الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قـــال :

أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا اني لاحق بربي وانكـــم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، فان الله تعالى يقول :

« وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّـــذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » . وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فان الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ » .

وأوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ، ألم يشاطروكم من الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على انفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا يستأثروا عليهم ،

ألا واني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا فان موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده علي غدا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغي » •

وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول وأبو بكر يصلي بهم اذ برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم بضحك ، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف ، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج الى الصلاة : ، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر •

وفاة رسول الله ﷺ

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه ولحق بمولاه وكان ذلك في يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٣ م•) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام واحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوما ، وكان أبو بكر غائبا بالسنح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد ، فسل عمر سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله ، وقال : انما أرسل اليه كما أرسل الى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة ، والله اني لارجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم ، فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكي ويقول : توفي والذي نفسي بيده • صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حيا وميتا ، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين •

ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (ألا من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) وتـلا قوله تعالى : « إنـَّكَ مَيِّت وَإنـَّهُمْ مَيِّتُونَ » وقوله : « وَمَـا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ افَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ » .

قال عمر : فكأني لم أتل هذه الآية قط . ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الاربعاء حتى انتهى المسلمون من اقامة خليفة عليهم فغسل ودفن ، وكان الذي يغسله علي ابن أبي طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره في بيته ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد في حجرة عائشة حيث توفي وانزله القبر علي والعباس وولداه الفضل وقثم ، ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الارض قدر شبر .

شمائله عليه السلام

منح الله سبحانه النبي العربي الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده .

وفيما يلي نبذة يسيرة من محاسن صفاته واحساس آدابه مستقاة من أمهات كتب السيرة والتاريخ والحديث وغيرها :

كان عليه السلام ضخم الرأس واليدين والقدمين ، ليس بالطويل ولا

القصير ، سبط الشعر ، لونه أسمر ، وخلقته تامة ، وعيناه سوداوان ، وفي خديه حمرة ، متواضع في غير مذلة ، يمسح رأسه ولحيته بالمسك ، ويرسل شعره الى أنصاف أذنيه ، ويلبس قلنسوة بيضاء • فيه دعابة قليلة ، واذا مزح غض بصره ، في كلامه ترتيل وترسيل ، شديد الحياء ، ما صافحه أحد فترك يده حتى يكون ذلك هو الذي يترك يده ، وكان يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويجالس المساكين ، خطيبا شجاعا بطلا •

وكان عليه السلام اذا خطب (في نهي أو زجر) احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش • واذا خطب في الحرب اعتمد على قوس ، وفي السلم على عصا • وكان طويل الصمت ، قليل الضحك ، واذا ضحك وضع يده على فيه ، واذا تكلم تبسم • يجلس ويأكل على الارض ، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير •

وكان اذا مشى لم يلتفت ، واذا التفت التفت جميعا ، يتكفأ في مشيه كأنما ينحط من صبب • واذا اهتم لامر اكثر من مس لحيته ، واذا أراد غزوة ورى بغيرها •

اما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الاقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تمها بنظافة الشرع • قال عليه السلام : بني الدين على النظافة ، وقال أنس : ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله • وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده ، قال : فوجدت ليده بردا وريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار • قال غيره : مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، يضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها ، وروى البخاري في « تاريخه الكبير » عن

جابر : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه .

وأما وفور عقله ، صلى الله عليه وسلم ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم . ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته للعامة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلا عما أفاد من العلم وقرره من الشرع لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لاول بديهة .

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها مالا يوازي فصاحة وبلاغة كقوله :

« خير ما أعطي الناس : خلق حسن ».

« الجنة تحت أقدام الامهات » .

« خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره » .

« لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

« الارواح جنود مجندة : فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

« أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما ، عسى ان يكون حبيبك يوما ما » .

« من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

« لكل شيء آفة تفسده ، وآفة هذا الدين ولاة السوء » .

« احب الجهاد الى الله : كلمة حق تقال لامام جائر » .

« ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » .

« ألا أدلكم على أشدكم ؟ املككم لنفسه عند الغضب » .

« ذو الوجهين لا يكون وجيها عند الله » .

« ما هلك امرؤ عرف قدره » .

« رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » .

« خير الامور أوسطها » .

« الظلم ظلمات يوم القيامة » .

اسرته عليه السلام

أما أسرته صلى الله عليه وسلم فان زوجته الاولى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد استمرت معه وحدها الى ان توفيت سنة ٣ ق.هـ. وقد ولدت له القاسم (وكان يكنى به) وعبدالله (وهو الطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وكان بين كل ولدين سنة . ومات القاسم وعبدالله صغيرين ، فلم يبق له ولد ذكر ، فتزوج بعدها أربع عشرة امرأة دخل باثنتي عشرة منهن ، وتوفي وعنده تسع ، ولم يولد له غير ابراهيم من سريته مارية القبطية . ومات ابراهيم طفلا لم يبلغ سنتين . وتوفي جميع أولاده في حياته الا ابنته فاطمة فقد عاشت بعده ستة اشهر ، وكان قد تزوجها ابن عمه علي بن ابي طالب وهي في الثامنة عشرة من عمرها . فولدت

له الحسن والحسين فانحصرت فيهما نسبة كل منتسب الى رسول الله ، وولدت ولدا ثالثا سمته محسنا ، مات صغيرا .

كتابه ومؤذنوه وحراسه الخ ..

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب يملي عليهم ، لانه لم يتعلم الكتابة ، منهم ابو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم، وقيل ان زيدا كان اكثرهم كتابة .

وكان له عليه السلام أربعة من المؤذنين ، هم بلال وعمرو ابن ام كلثوم بالمدينة ، وأبو محذورة بمكة ، وسعد القرظ بقباء .

واتخذ رسول الله حرسا له ، منهم سعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة ، وكان على حرسه عباد بن بشر ، فلما نزلت « والله يعصمك من الناس » تركهم . اما خدمه فمنهم أنس بن مالك وربيعة بن كعب وغيرهما .

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم سيافون ورسل وشعراء وخطباء ، وخيل وبغال وابل ، وسلاح كثير من سيوف ودروع وقسي ورماح وغيرها .

أما عدد صحابته صلى الله عليه وسلم فقد كان يوم انتقل للرفيق الاعلى ١٢٤ ألفا .

(معجزاته عليه الصلاة والسلام)

لم يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات لان النوع الانساني كان قد بلغ اشده في عهده وكان قومه قد بلغوا من التشكك حدا ليس بعده غاية حتى قال الله فيهم في سورة الحجر :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

نعم لم يجعل رسول الله قاعدة دعوته غير الدليل والنظر الصادق وهما الدعامتان الطبيعيتان لكل دعوة صادقة ولكنه كانت تصدر عنه خوارق عادات مثل جميع من تقدمه من المرسلين . منها نبع الماء بين اصابعه . وقد روى هذا جمهور كبير من الصحابة . قال أنس بن مالك : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه ، فاتى النبي صلى الله عليه وسلم بوضوء (بفتح الواو أي ماء للوضوء) فوضع في الاناء يده وامر الناس ان يتوضأوا منه . قال انس فرأينا الماء ينبع من بين اصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم . فقيل كم كنتم فقال زهاء ثلاثمائة .

وقال ابن مسعود : بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء . فقال اطلبوا من معه فضل ماء فاتى بماء فصبه في اناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماءينبع من بين اصابعه .

وقال جابر : عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها واقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء الا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين اصابعه كامثال العيون . قيل كم كنتم . قال : لو كنا مائة الف لكفانا كنا خمس عشرة مائة (أي الف وخمسماية) .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم تكثير الطعام . روى طلحة انه

عليه الصلاة والسلام اطعم سبعين او ثمانين من اقراص من شعير جاء بها انس تحت ابطه فامر بها عليه السلام ففتتت وقال فيها ما شاء الله ان يقول.

وروى جابر انه عليه الصلاة والسلام اطعم يوم الخندق الف رجل من صاع شعير وعناق . وقال جابر فأقسم بالله لاكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وان برمتنا لتغط كما هي وان عجيننا ليخبز .

روى امثال هذا كثير من الصحابة الاجلاء كعبد الرحمن بن ابي بكر وسلمة ابن الاكوع وابي هريرة وعمر بن الخطاب وانس بن مالك .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام ابراء المرضى .

اصاب ابن ملاعب الاسنة استقساء فبعث الى النبي صلى الله عليه وسلم فاخذ بيده حثوة من الارض فتفل عليها ثم اعطاها رسوله فأخذها وهو يرى انه قد هزىء به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله .

ومنها اخباره بالغيب . اما القرآن ففيه كثير كقوله تعالى في سورة الروم : « غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » . وقد حصل ذٰلكَ . وكقوله تعالى في سورة القمر : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » وقد حصل ذلك . وكقوله تعالى في سورة المجادلة : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقد حصل ذلك . وكقوله تعالى : « وَٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » فلم يحدث له اذى على كثرة من كانوا يتقصدونه .

واما اخباره هو نفسه بالغيب فيؤيده ما قاله حذيفة بن اليمان ، قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون

في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه وقد علمه هؤلاء . وانه ليكون منه الشيء فأعرفه فاذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه ومـا ادري انسي اصحابـي ام تناسوه والله ما ترك عليه السلام من قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه واسم قبيلته .

فهرس

منذ ان كتب ابن اسحاق سيرة الرسول الكريم ﷺ والمؤرخون يتوالون على تأريخ حياة الرسول ، حتى تعددت كتب السيرة وكثر مدونوها ..

غير ان تدوين السيرة النبوية بأسلوب خال من الحشو والتعقيد اصبح ضرورة قومية ودينية في عصرنا الحاضر ، حتى ينتفع بها عامة العرب والمسلمون حيثما وجدت العروبة والاسلام ..

الكتاب هذا ، تأريخ لحياة الرسول وتدوين لسيرته ، بأسلوب مبسط سهل المنال ، تتجلى فيه حياة الرسول عليه السلام ، في جميع ادوارها واحوالها ، تجلية تظهر منها حكمة الرسالة قدوة لغيره ..

الغاية من هذا الكتاب ، التقريب بين المسلمين ورسولهم الكريم قربا يسمح لهم الاهتداء بهديه والاقتداء برشده .

منشورات دار الآفاق الجديدة — بيروت